أخبار اليوم
قطاع الثقافة

مكتبة الشعراوى الإسلامية



محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الشيخ الإمام
محمد متولى الشعراوى

مطبوعات
أخبار اليوم
قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة

جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

القاهرة ـ ذو الحجة ١٤١٩ هـ
مـــــارس ١٩٩٩ م

الغلاف : بريشة أسامة نجيب

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

محمد متولى الشعراوى

بسم الله الرحمن الرحيم

من وحى هذا الكتاب

مع النبى ﷺ

بقلم فضيلة الشيخ محمد السنراوى

مع النبى عاش الإمام الشعراوى صداقة بحب
وحباً بسلوك ، وسلوكاً بوصل

ومن هذا الوصال اتصل الإمام بالقرآن تلاوة وتزكية.. وتعليماً وتعلُّماً حتى أصبح حكيماً بالحكمة والموعظة الحسنة ومن خلال الحكمة أعطاه الله فيض الإلهام ومعجزة البيان ومنهج الحياة لكل زمان ومكان.

فعلى العقيدة الخالصة تربَّى

وعلى العبادة الخاشعة تزكَّى

وعلى الأخلاق الفاضلة تعطر الزمان به.

لذلك أراد فضيلته أن يبعث لمستقبل الأجيال

فيض المحب لأعز حبيب . وإلهام الحبيب لأعظم محبوب

مع النبى اليتيم الذى آواه الله ، وما قلاه وجعل الآخرة خيراً له

من أولاه ، وأعطاه الله فـارضـاه فكان نوراً موصــولاً يصل به من عاش فى أنواره فجاءت إشراقــاته نوراً يبدد ظلمات الحياة ، وهذا الكتاب خاطر من النور صاغه الإمام على خلاف المعهود .

وإنما هى فيوضـات إلهام وإشــارات تحمل أسرار السالك ، إلى رياض المصطفى ومدخل لأهل الصدق فى عـالم التأليف الوجدانى حتى يصير الوجد نغماً حالماً يطرب به كل قلب .

وفى هذه الخـواطر دفــاع عن السنة التى هى بيــان لكتــاب الله كمصدر ثانٍ للتشريع.

ومن القـرآن والسنة وهما المصـدران الأساســيان فى إصــلاح حركة الحياة ـ نجد المساعد للمصدرين عقولاً خمسة :

أولاً : الإجماع كعقل جمعى .

ثانياً : القياس كعقل منطقى .

ثالثاً : الاستنباط كعقل مفكر .

رابعاً : الاستحسان كعقل جمالى .

خامساً : والمصالح المرسلة كمطلب اجتماعى .

إذن : السنة العـمل بها واجب خـلافاً للذين لا يـفـهـمون ، وإذا فهمـوا فهم فى فهمهم خـاطئون ، فالذين يقولون « لا اجـتهاد مع النص » هم صادقون وإنما الصحيح أن يقال : لا اجتهاد فى النص لذلك يقول ابن تيمـية «القرآن والعقل نعمتـان من الله ، فإذا تعالى العقل فى فهم القرآن كان إلحاداً ، وإذا تسفل العقل عن فهم القرآن كان نقصــاً ، وإذا تساوى العقل مع فهم القـرآن كان مدداً بعطاء ،

لذلك يقـول الله جل علاه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل]

وقد جاء نص القرآن يقول : ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء]

وقال : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]

وقال ابـن القيم : « أقـسم سبـحانه وتعـالى بنفسـه على نفى الإيمان على العباد حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم » .

ويقول الحق : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

هذه النصـوص جـعلت من أقـوال الرسـول وأفعـال الرسـول وتقرير الرسول وسلوك الرسول بياناً لكتاب الله هو نور من وحى يُوحَى علَّمـه شديد القـوى ، فإلى المنكريـن للسنة يساق مـا نقلنا ونسوق إليهم ما يلى:

– كـيف نأخذ من كـتـاب الله منطق الاعـتقـاد ومنهج التـعبـد وسلوك الأخلاق ؟

– هل تريدون الاكتفاء بمنطوق الإجمال فى القرآن بغية التحلل

من التفصيل لإرضاء نفس أمارة أو ترجمة لمرادات أعداء دين الحق والعدل الذين قالوا قديماً : « إذا أردتم أن تمتلكوا الدنيا فاطمسوا معالم القرآن ، لأن فيه الحد » ، واللص لا يحب الحدود « وفيه الميزان » والميزان لا يحبه الظالم ، وفيه « الإخاء » بالانتماء على وحدة المبدأ ، وهذا لا يرضى لصوص الليل وأشباح الظلام .

هذه القضية أخذت من خواطر الشيخ فى هذا الكتاب وقفة لتأديب أصحاب الفكر المنحرف الذين إذا سعوا فى الأرض أكثروا فيها الفساد ، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط .

رحم الله إمام العصر الذى ما ترك قضية تقلق الدين إلاّ وضع لها الثوابت وأدَّب بقلمه المغرضين الذين طغوا بجهلهم وبغوا بظلمهم ، وليعلموا أن كتاب الله محفوظ والله حافظه .

ومن تعامى عن النور لا يضر النور فى شىء ، إنما يضر نفسه ، ومن تعامى عن الحق لا يضر الحق فى شىء ، وإنما وقع فى الذل والعذاب المهين.

فيأيها الأمين ، لك من الله الرحمة ، ولك من الناس الدعاء بأن تكون فى صحبة النبى يوم لا شفاعة إلا له ، وذلك بقدر حُبِّك له ، وبقدر ما أرسلت أسرار القرآن بياناً للناس وسنته سلوكاً للحياة لتحيا به وله وعليه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

والله ولى التوفيق .

محمد السنراوى

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة]

الفصل الأول

إعداد الكون لرسالة محمد ﷺ

إذا أردنا أن نكتب عن رسول الله ﷺ فإننا نحتاج إلى مجلدات كثيرة.. ذلك لأن سيرة رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونواحى العظمة فى حياته لا تنتهى.. ولكننا سنقدم فى هذا الكتاب لمحات أو خواطر عن هذه السيرة العَطِرة.. تتبعها إشراقات، بحسب ما يفيض الله علينا من عطاءات، استمداداً من عظمة صاحب الخلق العظيم.

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن رسول الله ﷺ.. نتحدث عن كيف تَمَّ إعداد الكون لرسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أعدَّ هذا الكون كله لاستقبال رسالة خاتم الأنبياء ومنهج الله الذى سيقوم ﷺ بإبلاغه لأهل الأرض مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.. (٦٧) ﴾ [المائدة]

ومنذ بداية الخلق كان اسم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ والإعداد لرسالته .. فمنذ عهد آدم كان المنهج هو الإسلام .. المنهج الذى نزل به آدم إلى الأرض وتلقَّاه من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مباشرة.. كان إسلام الوجه لله، وإسلام الأمر لله .. ذلك هو منهج السماء منذ بدأ الخلق حتى قيام الساعة.. فالأمر بما يصلح

البشرية والنهى عما يسيء إليها كان المنهج الذى تدور حوله كل الأديان فى قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وكل الأنبياء الذين جاءوا بالرسالات السماوية إنما كانوا يسيرون على منهج افعل ولا تفعل يبشرون برسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ التى جمعت كل قيم السماء .

وإذا قرأنا القرآن.. نجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾

[آل عمران]

هكذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم أنه أخذ على كل النبيين عهداً بالتبشير بمجيء رسول الله ﷺ، وبتصديق رسالته .. وإذا كان الحق جل جلاله قد أخذ هذا الميثاق مرة واحدة بأن جمع النبيين وهم فى عالم الذَّر.. فالثابت أن كل نبى من النبيين أخذ الله عليه ميثاقاً بأن يبلغ أتباعه والمؤمنين به برسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

فالحقُّ سبحانه وتعالى قد أخذ من أصلاب بنى آدم الذرية التى ستأتى حتى يوم القيامة.. وأشهدهم على نفسه وعلى ربوبيته.

---

(١) الإصر : العهد المؤكَّد.

وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ولذلك جاء فى الأثر مما يروى عن ميسرة رضى الله عنه حين سأل رسول الله ﷺ : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ فأجاب الرسول عليه الصلاة والسلام : « وآدم بين الروح والجسد حين أخذ الله منى الميثاق » .

وهكذا شهد رسول الله ﷺ بربوبية الخالق الأعظم مع الخلق جميعاً ، وآدم بين الروح والجسد .. وبين آدم عليه السلام وبين محمد عليه الصلاة والسلام جاء موكب الرسل .. يهدى إلى طريق الحق .. حتى لا يأتى أحد يوم القيامة مجادلاً بأنه لم يكن هناك مُذكِّر بمنهج الله أو مُبشِّر ونذير بما سيلقاه الإنسان فى الآخرة.

متى تتدخل السماء ؟

ولقد حمل آدم منهج الله إلى الأرض بتكليف من الله سبحانه وتعالى.. وكان من المفروض أن يُلقِّن آدم أولاده المنهج.. وأولاده يُلقِّنون أولادهم وهكذا.. ولكن الغفلة أصابت ذرية آدم فانحرفوا عن المنهج أو نسوه أو حرَّفوه.. وسجدوا لغير الله.. فكان لابُدَّ أن تتدخل السماء بموكب الرسل.. ليفيق الإنسان من الغفلة ، ويتذكر أن الله هو المعبود وهو الخالق.

ولذلك جاءت رسالات السماء فى موكب واحد كلها تبشر بالإسلام.. وكلها منهجها الإسلام.. بأن يعبد الناس إلهاً واحداً لا إله غيره ولا شريك له.. وأن يتخذوا منهج الله طريق حياتهم لينجيهم من العذاب ؛ ولذلك نجد فى سورة الأعراف أن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ.. (٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهكذا كل مواكب الرسل جاءت متفقة فى القمة الإيمانية أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. واحد أحد لا يُعبد غيره.. ثم جاءت بالمنهج.

بشارة إبراهيم بمحمد ﷺ

وعندما وقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يقيم القواعد من البيت، ويرفع يديه إلى السماء ، ويقول :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة]

وهكذا كانت استجابة دعوة إبراهيم بلاغاً للبشر بالنبى الخاتم. والبشارة برسول الله ﷺ موجودة فى كل كتاب سابق على القرآن الكريم.

فى التوراة يخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن ذلك، فيقول جلَّ جلاله وهو يخاطب موسى عليه السلام :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وعيسى عليه السلام بشَّر برسالة محمد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

بل إنه لم يبشر فقط برسول الله ﷺ.. بل ذُكرت أوصافه بدقَّة فى التوراة والإنجيل.. بحيث يمكن لأحبار اليهود ورهبان النصارى أن يعرفوا رسول الله دون أن يَدلَّهم أحد عليه.

وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة]

بَحِيرى يتعرف على الرسول ﷺ

وهكذا كانت رسالة رسول الله ﷺ ، بل وصورته معروفة ومُبشَّراً بها فى الكتب السماوية.. ولقد عرفه أحبار اليهود ورُهْبان النصارى قبل أن يُبعث .. وعرفوا موعد رسالته ، وتأكدوا من أنه بُعث.

ومن ذلك أن أبا طالب عم رسول الله ﷺ خرج فى قافلة للتجارة إلى الشام، وكان معه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو لا يزال غلاماً.. فلما نزلتْ القافلة بُصْرَى من أرض الشام.. وكان بها راهب يقال له «بَحيرى» يتعبد فى صومعته.. وكثيراً ما كانت تمر القوافل من هذا المكان ، فلا يكلمهم الراهب بَحيرى ، ولا يختلط بهم.

ولكنه فى هذه المرة صنع لهم طعاماً كثيراً.. ثم نزل من صومعته ، وقال لهم : إنى صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، وأحب أن تحضروا كلكم كبيركم وصغيركم ، وعبدكم وحُرِّكم .. فتعجب القوم وقالوا : كنا نمر كثيراً فلا تصنع لنا شيئاً ، فماذا حدث؟

فقال الراهب : أحببت أن أكرمكم.

واجتمع القوم على المائدة ما عدا رسول الله ﷺ الذى ظل جالساً تحت شجرة.. فقال بَحيرى : يا معشر قريش ، ألم يتخلف أحد منكم عن طعامى ؟ قالوا : ما تخلَّف إلا غلام هو أحدث القوم سناً .. قال : ادعوه .. ثم قام بَحيرى إلى رسول الله فاحتضنه وجعل ينظر إلى أشياء فى جسده .. ولما فرغ القوم من طعامهم

وتفرقوا قال بَحيرى لرسول الله عليه الصلاة والسلام : أسألك بحقِّ اللات والعزّى أن تخبرنى عما أسألك عنه .. وكان بحيرى قد سمعهم يقسمون باللات والعزى وهم يتحدثون . فقال له الرسول : لا تسألنى باللات والعزى ، فو الله ما أبغضت شيئاً قط بُغْضهما.

قال بَحيرى : فبالله أخبرنى عما أسألك عنه.

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : سلْنى عما بدا لك .. وظل بحيرى يسأل والرسول عليه الصلاة والسلام يجيب .. وبَحيرى يَجد كل ما يقوله الرسول عنده فى الكتاب .. ثم نظر إلى ظهرِه فرأى خاتم النبوة بين كتفيه.

فلما فرغ أقبل عمه أبو طالب فسأله بَحيرى : ما هذا الغلام منك ؟

قال أبو طالب : إنه ابنى .. فَردَّ بحيرى : ليس ابنك .. وهذا الغلام ما ينبغى أن يكون أبوه حياً .. فقال أبو طالب : إنه ابن أخى .. فقال بحيرى : فما فعل أبوه ؟.. قال أبو طالب : مات وأمه حُبْلَىَ به.

قال بحيرى : صدقتَ ، ولقد رأيت الغمام يظلله ، وهو جالس أمام الصومعة .. ولذلك دعوتكم .. ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود .. فوالله لئن رأوه وعرفوا عنه ما عرفت لَيبغُونه بالشر .. إن ابن أخيك هذا سيكون له شأن عظيم.

وحين سمع أبو طالب ذلك أسرع برسول الله ﷺ إلى مكة.

وفى حديث آخر عن ابن سلام ـ أحد أحبار اليهود ـ أنه جاء

إلى رسول الله ﷺ وقد أشهر إسلامه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله والله إنى لأعرف أن محمداً رسول الله كمعرفتى لابنى ومعرفتى بمحمد أشد ، ثم قال للرسول : «إن اليهود قوم بُهْت[1] وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى ».

وحين سأل رسول الله ﷺ اليهود عن ابن سلام وقال : ما تقولون فى ابن سلام ؟.. قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا[2] الجليل : قال : أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام؟ قالوا : «أعاذه الله من ذلك. فخرج عبدالله، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا : شرنا وابن شرنا وتنقصوه. قال : هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله »[3].

بل إن يهود المدينة كانوا يعرفون الزمن الذى سيكلف فيه محمد عليه الصلاة والسلام بالرسالة ؛ ولذلك كانوا يقولون للأوس والخزرج : أتى زمن رسول سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

إعداد الكون للرسالة

وهكذا نرى أن الكون أُعد إعداداً إيمانياً لاستقبال رسالة محمد ﷺ.. وقد يقال : ما فائدة التبشير برسالة محمد بالنسبة لأناس سيموتون قبل أن يُبعث ؟

---

(١) بهت : كاذبون مفترون .

(٢) الحبر : العالم .

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥٢٩/٢) .

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى شاءت إرادته ألا يموت أحد من المؤمنين الذين لم يعاصروا رسول الله ﷺ.. إلا وهو مُبشّر به ومؤمن بأنه قادم.. وكان هذا الإعداد الإيماني للكون لاستقبال رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.. ليبين لنا عظَم شأن هذا النبي الخاتم عند الحق سبحانه وتعالى.

وكان هذا الإعداد الإيماني جزءاً من الإعداد الكوني لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام.. أما الجزء الأخير فقد حدث في العام الذي وُلد فيه رسول الله ﷺ.. أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخبر الأرض بأن نبياً خاتماً سيأتي.. وأن الله هو الذي سيحفظ رسالته.. وأن هذا النبي سَيَدكُّ أركان الظلم في الكون.. وأن منهجه إذا اتبع فإنه يمحو الظلم ويأتي بالعدل.. فكانت هناك إشارة في عام مولده.. وإشارة في يوم مولده ﷺ.

أما الإشارة التي حدثت في عام مولده فهي حادثة الفيل.. عندما أراد أبرهة ـ وهو أحد قواد الحبشة ـ أن يهدم الكعبة بيت الله الحرام.. وقيل : إن أبرهة كان قوياً جباراً غزا اليمن.. عندما سمع أن الناس تحج إلى بيت الله الحرام أراد أن يبني بيتاً باليمن لتحج إليه الناس بدلاً من مكة.

فجاء أعرابي وألقى قاذورات في هذا البيت.. فثار أبرهة وصمم على أن ينتقم بهدم الكعبة(1).. وزيّن له الشيطان عمله، فهذا هو أسلوب الشيطان في تزيين الباطل.. قد بيّنه لنا القرآن الكريم في قوله تعالى :

(1) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (١١٧/١).

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) ﴾ [الانفال]

الشيطان وأبرهة

وهكذا أوضح الله لنا فى القرآن الكريم كيف يزين الشيطان السوء للناس ليحذرنا منه.. الشيطان قال لأبرهة : أنت قوىٌّ شديد البأس.. وهؤلاء عرب رُحَّل لا حَوْل لهم ولا قوة.. اذهب واهدم البيت فلن تجد أحداً يدافع عنه.. وأعد أبرهة جيشاً قوياً من الافيال والرجال الأشداء.. وانطلق مزهواً بقوته ليهدم بيت الله الحرام.

وحين وصل إلى مكة ورأى أهلها هذا الجيش الهائل ومعه الأفيال أسرعوا وهربوا إلى الجبال.. وتركوا البيت بلا مُدافع.. وكان لله فى ذلك حكمة.. فلو أن أهل مكة أحاطوا بالبيت ليدافعوا عنه وهُزم أبرهة لقيل.قلة شجاعة هزمتْ جيش أبرهة.. بل لو بقى مدافع واحد أمام البيت لرُويت عنه الأساطير.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يترك جميع البشر بيته بلا حماية، ووقف أبرهة ومعه جيشه الكبير ، والبيت لا يحميه أحد من البشر.

وهنا حدثت المعجزة.. فإذا بالسماء تمتلىء طيراً ، وإذا بهذه الطيور تلقى حجارة صغيرة فتفنى جيش أبرهة وتُفتته.. وهكذا فَنى الجيش الهائل فى لحظات.. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي

تضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

ولقد أراد بعض العلماء أن يُسهِّلوا الأمر على الله ، فقالوا : إن الجراثيم هي التي فتكتْ بجيش أبرهة.. ولكن هذا غير صحيح؛ لأن حادثة الفيل وقعت في العام الذي وُلد فيه رسول الله ﷺ.. ورسول الله بُعث في الأربعين.. فلو أنّ هذه الآية نزلت بغير ما حدث فعلاً.. لكان سكان مكة الذين يبلغون من العمر خمسين سنة أو ستين سنة أو سبعين سنة أو أكثر.. ومنهم الكفار الذين يهمهم أن يطعنوا في هذا الدين.. لكانوا قالوا : لقد شهدنا عام الفيل ولم نَرَ طيراً تأتي ولا حجارة تفني.

ولكن لأن الطير جاءت فعلاً .. وألقتْ حجارة من سجيل[1] فلم يستطع أحد أن يُكذِّب ما روتْه الآية الكريمة.. ولابد أن نعلم أن الله قادر على كل شيء .. فلا نحاول نحن أن نضع تفسيرات تُقلِّل من قدرة الله جلَّ جلاله ولا من قوته.. ولا نحاولْ أنْ نجعل معجزات الله تخضع لأسباب الدنيا ، ولا لما تتسع له عقولنا.. فهي أكبر من ذلك بكثير.

المنهاج القويم

ما معنى ما حدث ؟.. معناه أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن رسول الله ﷺ الذي سيولد في هذا العام سيأتي بمنهج تحفظه السماء ، وإنْ تَخلَّى عنه البشر جميعاً.. فلن يستطيع أحد

(١) السجيل : الطين المتحجر.

من البشر أن يُحرك أو يغيِّر أو يبدل أو يُخفى شيئاً من القرآن.. منهج رسول الله ﷺ.. لأن هذا المنهج محفوظ بقدرة الله عز وجل.. وما يحفظه الله لا تصل إليه قدرة البشر.

ولذلك نجد شيئاً عجيباً .. بينما الخط الإيمانى فى هبوط .. نجد أن خَطَّ حفْظ القرآن فى صعود .. بل نجد الحق سبحانه وتعالى يسخر لحفظ القرآن مَنْ لا يؤمنون به . فنجد عالماً ألمانياً يكتب القرآن فى صفحة واحدة .. ومؤسسة فى اليابان تطبع القرآن طباعة فاخرة .. ومن كل أرجاء الأرض مَنْ يخدمون القرآن من غير المسلمين ، بينما لا يفعلون ذلك فى كتبهم هم.

وتجد مَنْ يتبارى فى تزيين المصحف وإخراجه بشكل جميل وهو لا يحفظ إلا بعض آيات القرآن.. هذا الخط الإيمانى هو من الله سبحانه وتعالى الذى حفظ كتابه الكريم من عبث البشر إلى يوم القيامة.. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ [الحجر]

مولد النور

ثم نأتى بعد ذلك إلى يوم مولد رسول الله ﷺ.. فى هذا اليوم اهتزت حصون الظلم فى الدنيا.. وإذا بالنار المقدسة التى يعبدها المجوس تنطفىء.. وإذا ببحيرة ساوة التى كان يقدسها الفرس تغيض[1].. وإذا بإيوان كسرى معقل الظلم والكفر فى الدنيا يتصدع وتتساقط شرفاته.

(١) غاض الماء : نقص وذهب فى الأرض.

هل حدث ذلك بفعل فاعل ؟ أم بقدرة الله وحده ؟

لقد حـدث بقدرة الله ، لنعـرف أن الحق الذى ولد نبيـه فى هذا اليوم سَيَدُكُّ حصون الظلم فى الدنيا .. وأن المنهج الذى سيأتى به هذا الرسول الكريم إذا اتبع بحقٍّ وإيمان صـادق .. وطُبِّق كما جاء فلن يبـقى ظلم على الأرض .. وكان هذا إشـارة كونيـة إلى الدين الجديد ، وما يحمله إلى هذا العالم.

ولقد حدث.. فعندما نزل القرآن كان العرب أمة متفرقة وقبائل متناحـرة ، لا حول لها ولا قـوة.. يقتل بعـضها بعـضاً ، ولا تقف الحروب بينها .. وكانوا يعيشون فى صحراء جَرْداء لا مطمعَ فيها لأحد.. ثم جـاء الإسلام ليـجعل هؤلاء العـرب يسودون العـالم .. ويهزمون أكبر قُوَّتين فى هذا الوقت ، وهما : الفرس والروم.

كـيف حـدث ذلك كله؟ هل أتى القـرآن للعـرب بقنبلة ذرية؟ أو بسلاح سرى جديد؟ أو بكشف علمى لم يصلَ إليه أحد؟

لم يحـدث هذا.. ولكن القـرآن جـاء بمنهج من الله جل جـلاله.. لو اتبعـه الإنسان لساد الدنيا كـلها.. ولأصبح سيـداً لهذا الكون.. ولقد اتبع العـرب منهج الله ، وإذا بهم فى سنوات قليلة يصبـحون سادة الأرض أصـحاب حضـارة وقوة.. كلمـتهم مسموعة.. وقوتهم مرهوبة.. وهم رُواد التقدم والحضارة فى كل شىء.

وهكذا منهج الله.. من اتبـعه بحق فـقد سـاد.. ومن تركه فـقد خاب.

عالمية الرسالة

بعد هذا الإعداد الإيماني الذى أعده الله فى كونه لرسوله.. بأن كل أنبيائه يُبشِّرون بالرسول.. وبعد أن ذكر أوصاف رسول الله ﷺ فى الكتب السماوية التى سبقتْ القرآن.. وبعد أن جاءت حادثة الفيل لتُلفتَ العرب عند حدوثها.. وتُلفتَ الدنيا كلها بذكرها فى القرآن الكَريم إلى قدرة الله سبحانه وتعالى.. وبعد أن زُلزلت أكبر معاقل الظلم فى الدنيا.. كان لا بد من الإجابة عن سؤالَين هامين :

السؤال الأول : لماذ جاءت رسالة رسول الله ﷺ للعالمين أو للدنيا كلها؟.. ولم تَأت لقومه خاصة .. لقد كان الأنبياء قبل رسول الله عليه الصلاة والسَّلام يُرسلون إلى أقوامهم فقط ليعالجوا داءات معينة فى الكون .. حتى أنه فى وقت واحد كان هناك أكثر من رَّسول .. فكان هناك إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، وكان هناك لوط عليه السلام .. كلاهما بُعث فى وقت واحد .. إبراهيم ليعالج عبادة الإصنام .. ولوط ليعَالج الشذوذ الجنسى الذى تفشّى بين قومه.

نقول : إنه فى الأوقات التى أرسل فيها الرسل السابقون كانت المجتمعات منعزلة عن بعضها البعض.. وكانت وسائل المواصلات بطيئة وشاقة ، وتكاد تكون شبه معدومة .. حتى أن هناك قوماً كانوا يعيشون فى مكان ما ، لا يعرفون شيئاً عن أُناس يعيشون فى مكان بعيد عنهم.

ولذلك اقتضتْ حكمة السماء أن يُرسَل كل رسول إلى قومه.. ليعالج داء أو داءات معينة فى مجتمع معين .. ولكن الله سبحانه وتعالى فى علمه أن الكون سيتوحد .. وأنه جَلَّ جلاله سيتيح

للبشـر من أسرار كـونه ما يجعل الاتصـالات سهلة.. والمسـافات البعيدة قصيرة .. فيتوحد العالم فى مشكلاته، وهذا ما نراه الآن.

فالحادث الذى يقع فى دولة ما ، يعرفـه العالم كله بعد دقائق.. والداء يظهر فى أمريكا فـينتقل بسرعة إلى أوربا.. وبسرعـة أكبر إلى إفريقيا وآسيا وباقى الدول.. حتى أصبحت مشاكل العالم شبه واحدة.. فنرى مـثلاً مشـكلة العنف والإرهاب تواجه الدنيـا كلها.. ونرى مشكلة المخدرات لا تقتصر على شباب دولة معينة ، بل تمتد إلى دول العـالم أجمع .. وهكذا توحـدت الداءات فى الدنيا كلـها.. فكان لا بد من وحـدة المعالجـة.. لأن المشـاكل فى العالم واحـدة، فالعلاج يكون موحداً.

وهكذا جاءت رسـالة خاتم الأنبيـاء والمرسلين لتعالج مـشاكل العالم كله.. ولقـد كان من الواجب بعد كل هذه المقـدمات أن يُحس الناس بأهمية الإسلام .. وبما جاء به القرآن كمنهج .. ولكنهم بَدلاً من ذلك فإن كـثيراً من أهل الأرض الـذين يسمعـون عن الإسلام والقرآن .. لا يحاولون أن يقرأوا عنه تلك القراءة الواعية التى تنير أمامهم الطريق.

وتجد الواحـد منهم مثـلاً يهتم برحلة سيـاحيـة سيقـوم بها ، فيقرأ أدق الـتفاصيل عن البلاد التى سيـزورها.. ويسأل مَنْ سبق لهم أن زاروها.. ولكنـه لا يحـاول أن يتعـلم دينه أو أن يفـهم عن الإسلام ما تقوم عليه الحياة .

ولقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون .. وأعده للإنسان قبل أن يخلق الإنسان .. وجعل الإنسان هو السيد ، وكل الكون يخدمه وكله مُسخَّـر له .. ولكن الكثيرين لا يسألون أنـفسهم ؟ مَن الذى سخر؟ ومَن الذى خلق؟

السؤال الثانى : لماذا كان رسول الله ﷺ خـاتم الأنبياء..؟ لأن بعثته عليه الصلاة والسلام اكتـمال للأديان وتمام للنعمة وفيهما عين الرضى وبعين الرضى تكون مظلة الإسـلام التى ترفرف على العالمين.. اكتمل المنهج.. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

ويقول رسـول الله ﷺ : « مثلى ومَثَلُ الأنبـياء من قبلى كـمثل رجل بنى بنياناً فـأحسنه وأجمله ، إلا مـوضعَ لبنة من زاوية منْ زواياه ، فجـعل الناسُ يطوفون به ويعـجبون لـه ، ويقولون : هلا وضعتَ هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1].

والله سبحانه وتعالى قد جعل معجزة رسول الله ﷺ هى منهجه.. ليبـقى المنهج محروسـاً إلى يوم القيامة بالمعـجزة.. فالكتب السـابقة ائتمن الله عليـها خَلْقَـه . ماذا فعلوا بهـا ؟ .. نَسَوْها ومـا لم ينسوه حرَّفوه .. وما لم يُحرفوه أخفوه .. وما لم يُخْفوه بدَّلوه وغيَّروه.

وهكذا لم يكُن البـشر مأمـونين على منهج السـماء ، لأن هوى النفس تدخل .. وأطماع الدنيا غيَّرت وبدَّلت .. ولكن الحق سبحانه وتعالى حفظ القرآن الكريم من أى تغيير أو تبديل.

القرآن إعجاز متجدد

وجـعل الله سـبحـانه وتعـالى منهج رسـول الله ﷺ مـعجـزة متجددة .. فالقرآن له عطاء لكل جـيل .. وهناك أشياء بيَّنها رسول الله ﷺ .. وشرحها وفسرها تفسيراً دقيقاً ، وهذه هى التى تتصل بالعـبادات .. فلم يتـرك الرسول عـليه الصـلاة والسلام تشـريع عبادة إلا وبيَّنه تفصيلاً.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولكن هناك آيات من القرآن الكريم لم يكن عقل المعاصرين لرسول الله ﷺ يطيقها .. وهذه تركها رسول الله عليه الصلاة والسلام لتبين إعجاز القرآن لكل جيل .. كذلك ما يمضى زمن إلا وتظهر معجزة جديدة للقرآن لم نكُنْ نلتفت إليها.

يقول الحق : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

فعندما اكْتُشِفت كروية الأرض .. تبيَّنَّا أن القرآن الكريم كان أول من أشار إليها فى خَلْق الليل والنهار.. ولقد أشار هذا الكتاب إلى كروية الأرض ودورانها حول نفسها فى آية واحدة فى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان]

والشيء يخلف الشيء ، أى : يأتى بعده تماماً كدوريات الحراسة .. دورية تخلف دورية .. أو ورديات العمل فى المصانع كل منها تخلف الأخرى .. ولكن لا بُدَّ من بداية فى كل هذا .. فتكون الدورية الأولى للحراسة لا تخلف مَنْ سبقها.. وتكون الوردية الأولى فى المصنع عندما يبدأ العمل لا تخلف وردية أخرى ؛ لأنها بداية العمل فى المصنع.. ولكن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

إذن : فلا بُدَّ أن يخلف الليلُ النهارَ ساعة الخلق .. ولا يتم هذا إلا إذا خلق الليل والنهار معاً على سطح الأرض .. ولا يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية .. ففى ساعة الخلق يوجد الليل والنهار على الأرض فى لحظة واحدة فيكون كل منهما خِلْفة للآخر .. ولا يخلف الليل النهار إلا إذا كانت الأرض تدور حولَ نفسها . فلو

أن الأرض ثابتة .. لبقى الجزء المنير نهاراً ، وبقى الجزء المظلم ليلاً دائماً.

إذن: فلابُدَّ من حركة دوران الأرض.. ويتطور العلم ويستطيع أن يُصوِّر الجنين فى بطن أمه.. فيجد أن القرآن قد صور أطوار الجنين فى بطن أمه تصويراً علمياً مذهلاً .. ويكتشف الطب أن مركز الإحساس فى الإنسان هو الجلد ؛ لأن أطراف الأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة .. فيجد الآية الكريمة :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ..(٥٦) ﴾ [النساء]

والآية عن الخلود فى العذاب لأهل النار.. وهناك معجزات كثيرة فى القرآن الكريم كشف الله عنها.. ومعجزات كثيرة سيكشف عنها للأجيال القادمة .. كل هذا يجعل معجزات القرآن متجددة دائماً .. بحيث يكون له فى كل عصر معجزة.

ولقد فرح الكون كله لمولد رسول الله ﷺ.. لأنه جاء بمنهج يعيد انسجام الإنسان مع الكون ومع النفس .. علماً بأن الكون كله مسخر فى الطاعة.. ما عدا الإنس والجان فلهما اختيار.. ولا يحسب أحد أن الكون قد قهر من الله سبحانه وتعالى على أن يكون مقهوراً .. بل إن الله شاء عدله أن يكون ذلك القهر عن اختيار ولو كان قهراً ما وضع الله سبحانه وتعالى أمامه الاختيار .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ومن هنا نرى أن الحق سبحانه وتعالى عرض الأمانة أو حرية

الاختيار على كل مخلوقاته .. ولكن المخلوقات الأخرى لا تستطيع أن تؤدى حَقَّ الأمانة .. فقالت : يا رب اخترنا أن نكون مقهورين.. أما الإنسان فقد غَرَّه عقله ، فطلب حرية الاختيار.

الكون والإنسان

إذن : الكون كله مُسبِّح ما عدا الإنسان .. فمنه المسبِّح ، ومنه غير المسبِّح .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

وهكذا عندما جاء ذكر البشر اختلفت الطاعة ، بينما الكل مُسبِّح .. ولذلك فقد سمع رسول الله ﷺ تسبيحَ الحصى .. وحَنَّ إليه جذع النخلة الذى كان يستند عليه وهو يَعظ الناس .. فأصدر أنيناً عندما بنى منبر لرسول الله ليخطب عليه .. وكان الغمام يظلله .. وشكا له الجمل من قسوة الإنسان .. ونبع من بين أصابعه الماء.

كل هذه الأشياء المسبِّحة فرحتْ برسالة محمد ﷺ .. ولكن الإنسان الذى جعله سيد هذا الكون .. وخلق له كل هذه النعم .. هو الذى قاوم وهو الذى كفر .. ولذلك فإن كل ما فى هذا الكون من جماد ونبات وحيوان يلعن الكافر .. حتى جسد الإنسان الذى سخره الله له ليطيعه إذا أراد الطاعة ، ويطيعه إذا أراد المعصية.

فاللسان قادر على أن ينطق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. وقادر على أن ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله.. واليد تطيع صاحبها وهو يبطش بالناس.. وتطيعه وهو يَقيل إنساناً من

عَثْرته.. أو يساعد عاجزاً أو ضريراً على عبور الطريق.

ولكن كل هذه الأعضاء فى جسد الإنسان تأتى يوم القيامة وتشهد عليه وتلعنه.. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن تنزل رسالة الإسلام فى مكة.. تلك البقعة المباركة التى اختارها سبحانه وتعالى بيتاً له.. ورغم أنها بقعة صغيرة من الأرض الواسعة التى خلقها الله .. إلا أن الإنسان أبى بكفره إلا أن يُدنِّس هذا البيت .. ويجعل فيه العبادة لغير الله .. فوضع فى بيت الله الذى تَمَّ باختيار الله الأصنام التى تُعبَد من دون الله.

فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبدأ هذا الدين بتطهير بيته.. وأن تكون صيحة الإيمان الأولى فى آذان سادة قريش الذين أعطاهم البيت سيادة على العرب كلهم .. هؤلاء الذين كانوا أئمة الكفر وواضعى الأصنام فى بيت الله الحرام .. والذين تجبَّروا فى الدنيا ، فكان مجتمعهم بعيداً عن عبادة الله ، يبيح المعاصى والكفر والشرك.. وجاءت صيحة الإيمان لتزلزل هذا كله وتعطى للحياة القيم الخالدة من هذا المكان الذى يتصل بقارات الأرض براً وبحراً فهى ملتقى الانطلاق ومنه إرسال الرسالة إلى العالمين .

على أننا قبل أن نبدأ بالتحدث عن الرسالة .. لابد أن نتحدث عن الرسول .. وعن أوصافه ممنْ عاصروه .. ولماذا كان على خُلق عظيم .. ولماذا اختار له الله سبحانه وتعالى أن يكون بشراً .. وأن يكون أمياً .. وأن يكون يتيماً ؟

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾

[الإسراء]

الفصل الثاني

لماذا كان الرسول بشراً ؟

إن مكة التى شهدت مولد الرسول وأحداث الرسالة.. لها مكانة خاصة عند الله سبحانه وتعالى.. ذلك أن أول بيت وُضع للناس كان فى مكة المكرمة.. يقول الحق :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) ﴾ [آل عمران]

بناه الملائكة وعرّفوه لآدم وحواء ليقوما بعبادة الله فيه.. وهو مكان للعبادة فقط.. وللصلاة التى هى الصلة بين الله وعباده.. ولقد تلقّى آدم المنهج من الله سبحانه وتعالى مباشرة.. واؤتمن عليه لكى يبلغه لأولاده.

ولكن مع الزمن غيَّر أولاد آدم وبدّلوا فى منهج الله.. وعبدوا الأصنام والأحجار والشمس والنجوم والحيوانات.. وغير ذلك من ألوان الشرك بالله .. ولأن الغفلة أصابت أولاد آدم .. فكان لا بُدَّ من رسول يأتى إليهم يُذكّرهم بمنهج الله سبحانه وتعالى ، ويلفتهم إلى عبادته.

وبمُضى الزمن وغفلة الناس عن البيت .. ضاعت العلامات التى تدل على مكانه .. فبيتُ الله هو قطعة الأرض التى يقوم عليها الحرم وما فوقها .. فالجو فوق الكعبة المشرفة ، وإلى عنان السماء .. هو امتداد لبيت الله سبحانه وتعالى .. ولذلك بُنى دور ثانٍ ودور ثالث فى الحرم .. وهذا ينطبق على كل بيت من بيوت الله.

ذلك أن المكان الذى يعلو المسجد امتداد للمسجد ، ومنه تتنزّل الملائكة على المصلّين.. ولذلك فإن المساجد أو الزوايا التى تقام

أسفل العمـارات لا تعتبر مـساجد إلا إذا كانت الضـرورة تقتضى الصـلاة فيـها .. ذلك أن فـوق هذه المسـاجد التى تبنى فى أسـفل العـمارات .. وفى شقـق العمـارة توجد الحـائض .. ويوجد غـير المتطهرين.

ومعنى ذلك أن الملائكة تمتنع عن النزول .. ولـذلك فإن الصلاة فى هذه الزوايا.. كصلاة الجـماعة فى أى حجـرة من الحجرات إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك ، لأن الضرورات تبيح المحظورات.

بيت الله الحرام هو المسجد الوحيـد الموجود فى الأرض باختيار الله سبـحانه وتعالى .. فـمساجـد الأرض كلها هى أماكن للعـبادة باختـيار خَلْق الله ، أما المسـجد الحرام في مكة فـهو باختـيار الله وحده .. ولذلك كان المسجد الحرام هو قـبلة مساجد الأرض كلها.. وكل المصلين فى جميع أنحاء الأرض قبلتهم هى ذلك المسجد الذى اخـتاره الله للعـبادة باخـتيـاره هو .. ولذا كانت الأرض مـسجـداً للمسلمـين.. مصداقاً لقول رسـول الله ﷺ : « وجعلت لى الأرض مسجداً وتربتها طهوراً »(1).

إبراهيم ومكان البيت

حينما أصابت الغفلة أولاد آدم قيل إن عناصر التعرية والطبيعة طمستْ العلامات المميزة لمكان بيت الله الحرام.. وقيل : إن الطوفان فى عـهد نوح.. وهو الطوفـان الذى أغرق الأرض كلهـا قد ضـيّع العلامات التى تحدد مكان البيت وتُبينه للناس.

وعندما نريد أن نميِّز بقعة فــى الأرض ونعرفها للناس.. فهناك

(1) متفق عليه : أخرجه البخارى في صحيحه (335) ومسلم فى صحيحه (521) عن جابر ابن عبد الله.

عامـلان أساسيـان.. المكان والمكين.. المكان هو البقـعة من الأرض التى نريد أن نميزها وأن نعرفهـا للناس.. والمكين هو العلامة التى يهتدى بها الناس إلى المكان.. ولذلك فإن مكان بيت الله الحرام بقى كما هو لم يؤثر فيه شىء.. ولكن المكين أو العلامة التى تدل الناس هى التى ضاعت أو طمست ، فأصبح المكان غير معروف للبشر.

حينئـذ فإن الله سـبحانه وتـعالى هدى إبراهيم عليـه السلام.. وبيَّن له مكان الـبيـت .. لماذا ؟ ليـرفع القـواعـد من البـيت حـتى يستطيع الناس أن يهتدوا إلى مكانه .. إذن : فمكان بيت الله الحرام موجـود فى الأرض منذ خلق الله الأرض.. ولكن المكين أو العـلامة المميزة هى التى طُمست ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج]

ومعنى بوّأنا أى بيَّنا.. والحق سبحـانه وتعالى بيَّن مكان البيت لإبراهيم عليـه الســلام.. وأقـام إبراهيم القـواعد.. أو ذلك الجـزء المرتفع عن الأرض.. الـذى يدل على مكان البـيت.. وهـو الكعـبـة المشرفة.. المسجد الحرام ليس هو الكعـبة المشرفة ـ بل الكعبة هى التى تدل الناس على البيت.

طهارة المسجد الحرام

الله سـبحـانه وتعـالى خصَّص بيتـه فى هذا المكان فى الأرض للعبادة.. فلذلك لا يجب على أى إنسـان أن يدخل المسجد الحرام إلا أن ينشـغل بعـبادة ربـه ويعتـزل الدنيـا.. ويخلع الدنيـا مع نَعْليـه ويُلقيها خارج بيت الله الحرام ، ويتفرغ للركوع والسجود وذكر الله.

ولكن الغفلة التى أصابت الإنسان جعلته يضع فى بيت الله ما يُعبد من دون الله. أدخلت الأصنام إلى بيت الله يعبدها الإنسان وهى من حجر يصنعه.. ولم يفكر أحد كيف يمكن أن يصنع المخلوق إلهه.. وكيف يمكن أن يكون الإله حجراً لا حَوْل له ولا قوة.. ولكنها الغفلة والبُعْد عن منهج الله.

فالناس تريد أن تعيش حياتها حَسْب هواها.. تظلم وتسرق وتفعل كل فاحشة وتُطلق لشهواتها العَنان.. وأقصى أمنية الكافر أن يجد إلهاً بلا منهج.. أى : إلهاً لا يقيده بمنهج.

حينئذ هو يفعل فى الحياة ما يشاء.. وفى نفس الوقت يرضى فطرة التدين وفطرة الإيمان التى خلق الله الناس عليها.. والتى لا تستقيم حياةُ الناس بدونها.. وكانت رسالة رسول الله ﷺ لتطهير بيت الله من كل شرك.. وطهارة الإنسان قلباً ونفساً وفكراً حتى تكون العبادة فيه خالصة لله سبحانه وتعالى إلى أنْ يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

وجاء محمد رسول الله ﷺ إلى الكون.. بعد أن مهَّد له ربه تمهيداً كاملاً.. بأن بشَّر به النبيون .. وذكر الله سبحانه وتعالى صفاته فى الكتب السماوية التى نزلت قبل القرآن.. ليعرفه أهل الكتاب.. فلا تكون لأحد يوم القيامة حجة فى أن لا يؤمن به.. ولذلك كانت أوصاف رسول الله ﷺ موجودة فى التوراة والإنجيل.

ولما كان المؤمنون فى كل زمان ومكان يشتاقون للتعرف على ملامح رسول الله ﷺ ، فإننا نذكر ما قاله على بن أبى طالب لنروى ظمأ محبة أهل الإيمان للرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام.

أوصاف الرسول ﷺ

على بن أبى طالب هو الخليفة الرابع لرسول الله ﷺ وأول مَنْ آمن به من الصبيان.. ومعلوم أن أبا طالب عم رسول الله ووالد على رضى الله عنه هو الذى كفَل الرسول ﷺ.. وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يرسل علياً إلى أهل اليمن ليدعوهم للإسلام.. وكان يحضر مجلس القوم الذين كانوا يستمعون إلى كلام على رضى الله عنه أحد أحبار اليهود.

فسأل الحبر اليهودى علياً : صفْ لنا رسول الله أبا القاسم محمد بن عبدالله.. وكان الحبر اليهودى يمسك فى يده كتاباً.. وكلما تحدَّث على رضى الله عنه قلب اليهودى صفحات الكتاب.. كأنه يراجع الأوصاف التى ينطقها على رضى الله عنه.

قال على بن أبى طالب : إن رسول الله ليس بالقصير ولا بالطويل البائن ـ أى : أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يميل إلى القصر ، ولا زائد الطول بشكل لافت للنظر .

ويضيف علىّ : رسول الله ليس بالجعْد ولا بالسبط الشعر .. أى : أن شعر رسول الله ﷺ كان أسود اللون .. وَسَطاً بين النعومة والتجعُّد.

ويقول على رضى الله عنه : رسول الله ﷺ ضخم الرأس ، مشرب لونه حمرة ، أهدب الأشفار ، سلْط الجبين.

أى : أن رسول الله ﷺ كان وجهه فى لون الزهر أبيض يميل إلى الاحمرار.. رموش عينيه طويلة ، وجبهته واسعة ناعمة.

ويقول على رضى الله عنه : إن رسول الله ﷺ شَثْن الكفين والقدمين ، بعيد ما بين المنكبين.

أى : أن عظام رسول الله ﷺ كانت ضخمة عند مُلْتقى العظام فى الجسم ، كالركبتين والمرفقين والمنكبين .. وهذا دليل على قوة البدن .. وقدما الرسول عليه الصلاة والسلام وكفَّاه كانت ضخمة وأصابعه قوية.

ويُكمل على رضى الله عنه الصورة فيقول : إذا مشى يتكفأ، كأنما ينْزل من صَبَبٍ لم أرَ قبله مثله ، ولم أرَ بعده مثله.

أى : أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما يسير كانت الأرض تنحدر أمامه خشوعاً.. فيميل للأمام فى سَيْره.

الحَبْر يعلن إسلامه

وهنا سكت على بن أبى طالب رضى الله عنه.. فأكمل الحبر اليهودى الحديث من الكتاب الذى كان معه فقال : إن رسول الله فى عينيه حبرة .. حسن اللحية .. حسن الفم .. تام الأذنين .. يُقبل جميعا ويُدبر جميعاً.

فردَّ عليه على بن أبى طالب : هذه والله صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فقال الحبْر اليهودى : وفيه جَنَاء.. أى : مَيْل للأمام.

فقال على : هو الذى قلت كأنه ينزل من صَبَب ، أى : أن الأرض تنحدر أمامه .. فقال الحبر اليهودى : إن هذه الصفات فى سفْر آبائى هذا . وأشار إلى الكتاب الذى يحمله.

ثم قال الحبر اليهودى : ومكتوب أيضاً : ومجده يُبعث من حرم الله وأمنه وموضع بيته ، ثم يهاجر إلى حرم يُحرِّمه هو

«يقصد الحرم النبوى فى المدينة المنورة».. ويكون لهذا الحرم حُرْمة كحرمة الحرم الذى حرمه الله.

ويستمر الحوار بين على بن أبى طالب والحبْر اليهودى عن رسول الله ﷺ عن ما ورد فى أسفار التوراة.. وحينئذ يعلن الحبر اليهودى : أشهد أنه نبى الله ، وأنه رسول الله ﷺ إلى الناس كلهم.

هيئة الرسول ﷺ

ولقد كان رسول الله ﷺ فَخْماً مُفَخَّماً.. يتلالا وجهه كوجه القمر ليلة البدر.. إذا سرّه شيء يمتليء بشْراً.. ازجُّ الحواجب أى : دقيقها.. وبين الحاجبين فَرْق.. وفى هذا الفرق عرْق يظهر إذا غضب رسول الله عليه الصلاة والسلام من شيء.

ولرسول الله ﷺ نور يعلوه.. هالة من الضياء تُشع من فوقه.. شديد سواد العينين.. واسع الفم.. سَهْل الخدين.. أى : لا يوجد فى أحد خَدَّيْه علو أو بثور أو ورم.. مُفلَّج الاسنان.. اى : أن أسنانه مستوية بينها مسافات قليلة دقيقة.. عريض الصَّدْر ما بين المنكبين.. عنقه فى صفاء الفضة.

وفى ظهره خاتم النبوة الذى تحدثت عنه الكتب السماوية السابقة للقرآن.. وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً.. وأعظمهم خَلْقاً.. إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين.. وإذا صافحه أحد امتلأت يد المصافح برائحة زكية كأنها العطر.

فقد كانت رائحة رسول الله ﷺ أطيب من العطر.. وكان عرق رسول الله عليه الصلاة والسلام أزكى من العطر.. وكانت رائحة

رسول الله ﷺ تسبقه إلى أى مكان يذهب إليه.

لذلك يقول الصحـابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه : كنا نعرف رسـول الله ﷺ إذا أقبل بطيب رائحتـه.. فقد كانت رائحتـه الزكية تسبقه إلى أى مكان.. فإذا جلس ملأت المكان.

ويَصف هند بن أبى هالة بن السيـدة خديجة قبل زواجـها من رسول الله عليه الصلاة والسـلام .: يَصف رسول الله عليه الصلاة والسـلام فيـقول : خـافض الطرف .. نَظره إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السمـاء .. يبدأ مَنْ يلقـاه بالسلام .. متـواصل الحزن .. دائم الفكر .. طيب الرائـحة .. لا يتكلم فى غـيـر حاجـة ، أى : أن الرسـول الكريم يحـزن على الذين لم يدخل قلوبهم نـور رسالتـه التى جاءت لإسعاد البشرية.

من شمائل الرسول ﷺ

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يملُّ التامل.. ليست له عادات مميزة بحيث تسيطر عليه وتكون ضعفاً له.. لا ينطق إلا فى الحق.. كلماته دائمـاً دقيقـة.. لا زيادة فيـها ولا نقصـان.. كلماته لا تُهين احـداً ولا تجافى إنســاناً.. يُعظِّم أمر النعـمة ، ولا يذم أىَّ شىء يذوقه ولا يمدحـه.. حتى لا يقال عنه إنه يُفضِّـل طعاماً على طعـام .. فكل رزق الله عنده يستـحق التعظيم.. لا يغـضب لنفسـه ولا ينتصر لها.. إذا تحدث أتمَّ الكلمات حتى يفهمه مَنْ أمامه.

وقد سأل الحســين رضى الله عنه والده على بن أبى طالب كرم الله وجهه : كيف كان دخول رسول الله ﷺ إلى أى مكان ؟

فقال : كان دخوله لنفسه مأذوناً له .. ومعنى ذلك أن الرسول الكريم كان قبل أن يدخل إلى أى مكان يستأذن مَنْ بداخل المكان إذا كانوا مستعدين للقائه .. مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أحب للمؤمنين من أنفسهم.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا آوى إلى منزله جزَّأ وقته إلى ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه.. أى : أن له مكاناً يتعبد فيه ، ومكاناً للقاء أهله ، ومكاناً يختلى فيه بنفسه ، ويلتقى فيه بأصحابه .. وكان أقرب الناس إليه خيارهم. وعلى قدر أفضليتهم فى دين الله.. وعندما يأتى إليه أصحاب الحوائج فقلبه لهم ، وعقله معهم ، وينشغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلح أمرهم.

وكان رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كان وُصلَة لأخيه المسلم إلى ذى سلطان فى مبلغ بر ، أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دَحْض[1] الأقدام ».[2]

ويسأل الحسين رضى الله عنه أباه على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن خروج رسول الله ﷺ ، وما كان يصنع فيه.. فيجيب : كان رسول الله ﷺ قليل الكلام لا يتكلم إلا فيما يعنيه.. ويُؤلِّف قلوب مَنْ يلقاهم.. ولا يفرِّق القلوب.. يكرم كريم كل قوم ويُولِّيه عليهم.. ويتفقد أصحابه ويسأل عمَّنْ غاب منهم.. ويسأل الناس عمَّا فى الناس.. ويُحسِّن الحسن ويُصوِّب القبيح ويضعفه.

---

(١) الدحض : الزلق. والإدحاض : الإزلاق. [لسان العرب : مادة : دحض].

(٢) أخرجه الطبرانى فى الصغير (١/١٦١) ، وابن حبان (٢٠٦٩ ـ موارد الظمآن) من حديث عائشة رضى الله عنها.

وكان معتدل الأمر ، لا يغفل عن حديث أو قول أو أمر حتى لا يغفل الناس .. لا يبتعد عن الحق ولا يجاوزه .. لا يفضل أحداً عن أحد فى مجلسه .. ويحب أحسنهم قدرة على النصح ، وأعظمهم مقدرة على التعاطف والتآزر .. لا يتكلم إلا فيما يفيد .. يجمع كلامه قلوب الناس وعقولهم .. يحب أن تتكامل القلوب بالمحبة ولا تتفرق بالكراهية.

ويقول على بن أبى طالب : كان رسول الله ﷺ لا يُولّى على الناس إلا كريمهم ، أى : أكرم الناس بالناس .. لأن الكريم يمنح من ذات نفسه للآخرين .. ويسود عليهم بقدر ما يبذله من أجلهم .. لا يقهرهم على شيء .. وكان رسول الله ﷺ يُعلِّم أصحابه الفطنة.. ويزن الإنسان بميزان الاحترام .. وكان عليه الصلاة والسلام يحذر من أن يدسَّ له أحد قولاً عن أحد .. لا يحب أهل النميمة والقيل والقال .

وكان ﷺ يستقبل الناس بحب وعطف وبشر.. والأمر الحسن يزيده حُسنًا.. والأمر غير الحسن ينهى عنه.. دائم اليقظة والانتباه دون توتر أو قلق.. لا يغفل عن شيء مخافة أن تكون الغفلة منهجاً.. يزن كل أمر بميزان العدل.. ولا يختلف مع أحد محبة فى الخلاف.. لا يسمح بالنفاق فى مجلسه.. لا يجلس فى مكان ثابت.. إنما يجلس فى المكان الذى ينتهى به وسط الناس.. وكان ﷺ يوزع عنايته على كل من يحضر مجلسه.. حتى لا يظن أحد أنه أفضل من الآخرين.. لا يُنهى لقاءه بأحد ، إنما يترك إنهاء اللقاء لمن طلب المقابلة.. مجلسه حلْم وصبر وحياء وأمانة.. لا يرفع صوته إلا

بقدر ما يسمعه الآخـرون .. دائم البشْر ليِّن الجانب سهل الخلق.. يتغاضى عن أى سلوك لا يعجبه ، كأنه لم يره حتى لا يحرج أحداً فى مجلسه.

صفات ليست فى الرسول ﷺ

ولقـد ترك رســول الله ﷺ من نفســه ثلاثـة أمــور : الرياء.. والإكـثـار.. وما لا يـعنيـه.. وترك الناس فى ثلاثة أمـور.. لا يذم أحداً.. ولا يُـعيِّر أحـداً.. ولا يطلب عورة أو عـيوب أحـد.. إذا تكلم سكت جلسـاؤه.. وإذا سكت تكلـم أصـحـابه كُـلٌّ حَـسب دوره لا حـسب مكانتـه.. لا يقاطع أحـدهم الآخـر ، ولا يقاطع رسـول الله ﷺ أحدهم.

وكان رسـول الله ﷺ يضحك لما يضحك له أصحـابه.. ويعجب مما يعـجبـون به.. وإذا دخل غريب يجـهل مكانة رسول الله كـان الرسـول يصبـر على غلْظة الغـريب ويتلطف مـعه.. وإذا غـضب بعض الصـحابة لسلوك هؤلاء الغـرباء كان رسـول الله ﷺ يطلب منهم أن يلتزموا الحلم.

فـقد جـاء أعرابى إلى النبى ﷺ يـطلب منه فأعطاه ، ثم قـال : أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابى : لا ، ولا أجـملْتَ . فغضب المسلمون وقامـوا إليه. فـأشار إليهم الـنبى أن كفُّوا ، ثم قـام ودخل منزله، وأرسل إلى الأعرابى شيئاً ، ثم قال: أحسنتُ إليك؟ فقال الأعرابى : نعم فجزاك الله عن أهلى وعشيرتى خيراً.

فقال له النبى ﷺ : « إنك قُلْتَ مـا قُلْتَ وفى نفس أصحابى من

ذلك شيء . فإنْ أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك».

قال : نعم.

فلما كان الغد أو العشيّ جاء ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا الأعرابى قال ما قال ، فَزِدْناه ، فزعم أنه رضى . أكذلك ؟ قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال النبى : « مَثلى ومَثل هذا مَثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خَلُّوا بينى وبين ناقتى، فإنى أرفق بها منكم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قُمَام[1] الأرض فردَّها حتى جاءت واستناخت ، وشدَّ عليها رحلها، واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه ، دخل النار » .

وكان رسول الله ﷺ صبوراً حليماً.. صبراً على الغضب ، وحلْماً على الجهل .. وكان حازماً فى ردِّ النفاق .. كان صبيح الوجه. حسن الصوت.

بشرية الرسول ﷺ

على أن الحق سبحانه وتعالى اختار رسول الله ﷺ بشراً كريماً.. وكان هذا الاختيار هو محل هجوم المنافقين والكفار إلى يوم القيامة.. فكل رسول جاء قبل رسول الله ﷺ كان من البشر.. وكل رسول هاجمه قومه بأنه بشر.

---

(١) القمام : الكُناسة . قال اللحيانى : قمامة البيت ما كُسح منه فألقى بعضه على بعض. [لسان العرب ـ مادة : قمم].

اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]

لقد نزلت هذه الآية الكريمة فى قوم نوح عليه السلام ـ أول نبى أرسله الله بعد آدم ـ وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

ماذا قال أقوام نوح وعاد وثمود ومَنْ بعدهم لرسلهم ؟

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

وعندما أرسل الله سبحانه وتعالى شُعَيبًا إلى قومه حتى يُوفوا الكيل والميزان قالوا له :

﴿ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الشعراء]

وقوم ثمود الذين قالوا لنبيهم صالح :

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر]

وعن موسى عليه السلام عندما كذَّب به قوم فرعون.. ماذا قالوا ؟

﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية كلها مُجْملة فى قوله جلَّ جلاله :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝ ﴾ [التغابن]

وعن رسول الله ﷺ كانت بشريته أساساً اتخذه الكفار للتشكيك في رسالته.. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء]

طاعة الله ورسوله

إذن : فقضية بشرية الرسول أثارها المنافقون والكفار منذ بَدْء الرسالات السماوية .. وهي لا تزال مُثَارة حتى الآن .. ونجد من يتخذ من بشرية رسول الله ﷺ حجة لكي لا يتبع السنة.. أو لا يتبع ما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام .. وبعضهم يقول : إن السنة غير واجبة الاتباع. مَنْ اتبعها أُثيب ، ومَنْ تركها لا يُعاقب . إلى غير ذلك مما نجده حتى يومنا هذا.

ونسى هؤلاء الناس ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ۝ ﴾ [النساء]

وقوله جَلَّ جلاله :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ۝ ﴾ [الحشر]

وقوله عَزّ وجل :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .. ۝ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. (٨٠) ﴾ [النساء]

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالطاعة له والطاعة لرسوله فى قوله :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

ومرة أمرنا بأن نطيع الله ورسوله :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ﴾ [آل عمران]

وفى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (٣٢) ﴾ [آل عمران]

ومرة أمرنا بطاعة رسوله فى قوله جَلَّ جلاله :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. (٨٠) ﴾ [النساء]

ومرة أعطى رسوله ﷺ حَقَّ التشريع فى قوله جَلَّ جلاله :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾[الحشر]

وهكذا نجد أن اتباع السنة أمر واجب بنصِّ القرآن الكريم.. بل إن هناك أشياء كثيرة نزلت فى القرآن الكريم مُجْملة وبيّنها رسول الله ﷺ.

فالصلاة المفروضة ذُكِرَتْ فى القرآن ، فى قوله تعالى :

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ .. (٣) ﴾ [البقرة]

ولكن عدد الصلوات لم يُذكَر فى القرآن الكريم.. ولا أوقاتها.

ولا عدد ركعات كل صلاة ، ولا كيفية الصلاة .. كل هذا جاء فى السنة .. فكيف إذا تركنا السنة ، ولم نأخذ بها كيف نستطيع أن نصلى .. وكيف نستطيع أن نحُجَّ ومناسك الحج أخذناها عن رسول الله ﷺ.

إن الذين يحاولون أو ينادون بعدم الالتزام بالسنة أو تركها، إنما ينادون بترك الصلاة وترك الحج.. وترك أشياء كثيرة فى الدين ، ولا يمكن أن نفهم الدين، حسب مراد الله إلا من خلال بيان السنة ، ولا يمكن عبادة الله حق عبادته إلا باتباع القرآن منهجاً والسنة إيضاحاً وبياناً .

ورسول الله ﷺ يقول : « أوتيتُ القرآن ومثله معه ».[1]

ويقول عليه الصلاة والسلام : «تركتُ فيكم ما لو اتبعتموه لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتى»[2] إذن : فالسنة النبوية الشريفة واجبة الاتباع.. ويكفى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء]

الملائكة لا تصلح للرسالة

نعود بعد ذلك إلى قضية بشرية الرسول.. الله سبحانه وتعالى حين يختار مَنْ يُبلِّغ رسالته.. فإنه يختار من نفس جنس القوم المرسل إليهم.. فإذا كان الرسول للبشر فلابد أن يكون بشراً لأن الملائكة لا تصلح لرسالة البشرية وإنما ترسل بأمر الآمر فى

(١) أخرجه ابن عبد البر فى التمهيد (٢/١٥٦) (٤/٢٢١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/٣٣٢).

(٢) أخرجه مالك فى موطئه (٨٩٩) وأورده الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٧٦١).

قضايا خاصة من لدن الحق وهنا سؤال :

لماذا يكون الرسول بشراً ؟

لأن الرســول مُـبلِّغ لمنهـج الله .. أى : أنه يُبلِّغ الناس رســالة السماء .. فلابد أن يكون منهم ، ويتحـدث لغتهم ويعرف طباعهم.. حتى يستطيع أن يبلغهم الرسـالة.. ولابد أن يكونوا قد عرفوه قبل الرسـالة.. وعرفوا أمـانته ، وصـدق قوله ، وحـسن خلقـه .. فلا يشتـهر بينهم بالكذب مـثلاً ولا بسوء الخلق ولا بغـير ذلك .. فلو كانت حياته كذلك لم يصدقه أحد ، ولكن الواقع أجاب غير ذلك .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى فى اختياره وحتى يؤدى الرسول مهـمته كمـا أرادها الله.. فإن الله يبعثـه فى قومه.. يتحـدث بلسان القوم.. ويعرفونه مـعرفة جيدة وأكيدة قبل الرسـالة.. ويحترمونه لأمانته وخلقه وصدقـه.. وذلك حتى يتأكدوا أن هذا الرسول الذى لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله..

ثم إن الرسول بالإضافة إلى أنه يُبلِّغ قـومه المنهج فإنه يُعلِّمهم كيف يُطبقونه.. فإن منهج السـماء نظرية لابد لها من تطبيق عملى حتى يرى الناس رسـولهم ، وهو يصلى ، وهو يحج ، وهو يُطبق المنهج أمام قومـه حتى يتبعوه.. وليكون ذلك بطريقة عـملية.. فإن بشرية الرسـول حتمـية ودعوته ربانيـة بالوحى المأمول أو النطق الموصول والسلوك السوى .

لماذا ؟ لأنه لو أرسل الله سـبحانه وتـعالى مَلَكاً رسـولاً .. فإن الناس لن يعرفوه لأنه مَلَكٌ لا يعيش على الأرض .. فإذا فرضنا أن الحق سـبحـانه وتعالى عـرَّفه لـهم .. فإنهم سـيقـولون : إن هذا الرسول لا يصلح قـدوة لنا .. إن هذا مَلَك مخلوق من نور .. فـهو يتحـرك بخفـة وسهـولة .. ونحن بشر مـخلوقون من طين ثـقيل

الحركة ، وهذا مَلَك خلق لا يعصى الله ويفعل ما يُؤمر به .. ونحن بشر نصيب ونخطىء .

إذن : فالملك لا يصلح رسولاً للبشر .. لأن قدراته وطبيعة خلقه تختلف عن قدرات وطبيعة خلق البشر .. فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يأتى الرسول بشراً من جنس القوم الذين أُرسل إليهم .. حتى لا يأتى أحدهم يوم القيامة ويجادل . قائلاً : ياربّ حملتنا ما لا نطيق ، وفرضت علينا ما لا نقدر عليه .. لأن هذا مردود عليه بأن الرسول بشر مثلكم.

ومع ذلك استطاع أن يُطبِّق المنهج دون أن يتحمل فوق ما يطيق البشر.. وزيادة على ذلك ، فإن الله أرسل إليكم من تعرفونه وكنتم تعجبون به وبخلقه قبل أن يُكلَّف بالرسالة .. فلا عذر لكم يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى جاء بهذه القضية ، وردَّ عليها فى القرآن الكريم .. فقال جل جلاله :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الملائكة لا يعيشون الحياة الأرضية التى يعيشها البشر، ولذلك لا يمكن أن يكونوا رسلاً.. فإذا أضفنا إلى ذلك أننا ببشريتنا لا يمكن أن نرى الملائكة فإنهم فى هذه الحالة سيكونون غيباً عنا.. فكيف نأخذ القدوة ممن هم غيب عنا ؟

ثم يأتى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾
[الأنعام]

أى : أن الحق سبحانه وتعالى ينبهنا أنه لو أرسل ملكاً فلكى نراه لابد أن يجعله رجلاً يلبس نفس ثيابنا ، وفى هذه الحالة فسيكون أمامنا بشراً.

إذن : فبشرية الرسول حتمية .. ودعوته إلاهية حتى يمكن أن يكون معروفاً من قومه.. وحتى يمكن أن يطبق المنهج أمامنا فنفعل مثل ما يفعل.. وناخذ عنه التطبيق الصحيح لمنهج السماء.. ويكون قدوة قبل الرسالة.. وأن يكون معروفاً من القوم الذين أرسل إليهم.. كل هذه المواصفات من تمام إبلاغ الرسالة للبشر.. ولو اختلَّت لضاعتْ الرسالة فى التطبيق.

صدق الرسول وأمانته

الله سبحانه وتعالى حينما اختار رسوله ﷺ اختاره بشراً.. وبعثه إلى قومه وعاش بينهم أربعين عاماً قبل أن يكلف بالرسالة.. لم يعرفوا عنه كذباً قط ، بل كان هو الصادق الأمين.. كانوا إذا خافوا على شىء ائتمنوه عليه.. وكانوا يُصدِّقونه ويُحكِّمونه فيما يختلفون فيه.. وحتى بعد أن نزلت الرسالة كان الكفار الذين لا يؤمنون برسول الله ﷺ .. لا يجدون مَنْ يأتمنونه على كل غالٍ ونفيس يخافون عليه إلا رسول الله ﷺ.

لذلك عندما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.. طلب من على كرم الله وجهه أن يرد للناس ودائعهم التى ائتمنوه عليها.. وهكذا كانت بشرية الرسول التى جادل فيها المنافقون والكفار من

حتميات الرسالة وعدالة الحساب يوم القيامة .. مع أن الرسول بشر .. والمرسل إليهم بشر.. لا يملك أحد الحجة فى أن يدعى أن الرسول مخلوق فوق قدرات البشر ، جاءهم بمنهج لا يستطيعون أن يطبقوه.

وعندما أراد سليمان عليه السلام أن يُحضروا له عرش بلقيس.. وجمع الإنس والجن وغيرهم.. وطلب منهم إحضار عرش بلقيس قبل أن تصل إليه.. يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

إذن : عندما طلب سليمان أن يأتوه بعرش بلقيس لم يجرؤ بشر من العامة على أن يقول : أنا آتيك به .. وإنما كان أول مَنْ تكلم هو واحد من أقوياء الجان.. لماذا ؟.. لأن البشر فى العادة لهم قوانينهم .. وهم فى مسألة إحضار عرش بلقيس بالسرعة التى يريدها سليمان عليه السلام لا يقدرون عليها عادة .. لذلك سكتوا والتزموا بطبيعتهم بقوانين بشريتهم إلا من كان عنده علم من الكتاب لأن له اصطفاء خاصاً وتجهيزاً مخصصاً جعله يتحدى الجان فيما قال وقد صدق فيما عرض ووفى بعين الطلب قبل ارتداد الطرف وهو من الإنس المخصوص .. الذى سما بالعقيدة فارتقى وانفعل بالعبادة والسلوك الربانى فأعطى له من الخصوصيات ما يجعله يتحكم فيما يريد بإرادة المراد .

كذلك الرسالات السماوية لا تُحمِّل البشر إلا ما يطيقونه .. ولكى تكون الرسالة فى مقدور طاقة البشر .

على أن لنا حديثاً عن الوحى.. ولقاء الملك بالبشر .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا
إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) ﴾

[فصلت]

الفصل
الثالث

الرسول والوحي

إذا كان حديثنا عن رسول الله ﷺ والوحى.. فلابد أن نعرف أولاً ما هو الوحى.. الوحى هو إعلام بخفاء.. أى تُعلم شخصاً بشىء ولا يشعر إلا أنت وهو بأنك أعلمته.. فإذا كنتَ متفقاً مثلاً مع أهل بيتك على إشارات معينة لا يفهمها إلا أنت وَهُمْ ، لإحضار الطعام والشراب.. وقمت بالإشارة لهم بحيث لم يفهمك أحد فإن هذا يؤدى معنى الوحى.. لأنه إعلام بخفاء بين الموحى والموحَى إليه.. والله سبحانه وتعالى أوحى إلى رسله جميعاً أى : أن الرسالات السماوية كلها نزلت بطريق الوحى.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ [النساء]

وقوله جل وعلا :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

معنى الوحى

ولكن هل اقتصر الوحى من الله على أنبيائه ورسله؟.. نقول لا.. فقد أوحى الله للملائكة وللإنسان.. وأوحى للنحل ، وأوحى للجماد كما أخبرنا القرآن الكريم.. فالوحى للملائكة جاء فى غزوة

بدر عندمـا أراد الله أن يثبت المؤمنـين وينصرهم في أول مـعركـة على أئمة الكفر.. فقال تعالى :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال]

وأوحى الله إلى أم موسى عندما أمرها أن تلقيه في البحر.. قال جل جلاله :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧) ﴾ [القصص]

وساعـة يأتي الوحي من الله سـبحانه وتعـالى .. فإنه يسـيطر على الذهـن تمامـاً.. ولا يكون هنـاك مـوضـع لفكر بـشـري .. أو اسـتـخدام العـقل .. والله سبـحانه وتعالى يُوحـي إلى أم موسى ، وهي خـائفة عـلى ابنها من أن يـقتله فـرعـونَ وجنوده وهو طفل صـغـير.. حـيث أمـر فـرعـون بقـتل أي طفل ذكـر يولد من بني إسـرائيل.. بعد أن أخـبره العـرافـون أن رجلاً من بني إسـرائيل سيكون سبباً في زوال مُلكه.

ولو أنه كـانت اجتهـادات للعقـل البشري مـا فعلت أم مـوسى ذلك.. فكيف تلقي بطفل رضيع في صندوق في البـحـر لتنجيه من الموت ؟!.. ومـاذا كان يمكن أن يحـدث لو تلاعب الموج بالصندوق الذي فيـه الصغيـر فقلبه.. أو لـو هبّتْ عاصفـة أو ريح شديدة أو سقط المطر وامتـلأ الصندوق بالماء فغاص.. أو أخذه البـحـر وألقاه بعيداً في مكان لا يراه أحد ، فمات من الجوع والعطش..

كان العقل والمنطق يقتضـيان من أم موسى أن تُخفي ابنها عن أعين الناس.. أو تذهب به إلى مكان مهجور ليخـتبئا فيه.. أو تلجأ

إلى مغارة فى جبل أو أية حيلة أخرى تخفى بها موسى عن أعين رجال فرعون.. ولكن أن تلقيه فى البحر.. فكأنها تنجيه من موت مظنون لتلقيه إلى موت مُحقَّق.

ولكن عندما جاء الأمر من الله سبحانه وتعالى.. وقال الحق :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه]

لم تفكر أم موسى فى هذا كله ولكنها نفذت أمر الوحى.. ولكن بعد أن نفذت الأمر وذهب عنها الوحى أفاقت.. ولذلك أسرعت إلى أخته تطلب منها أن تتبع الصندوق.

وعندما حمل الماء الصندوق إلى قصر فرعون انزعجت أم موسى انزعاجاً كبيراً.. لأنها بدلاً من أن تُخفى ابنها عن أعين رجال فرعون.. قادته إلى فرعون نفسه .. ولكن الله سبحانه وتعالى كانت له حكمة فى أن يرينا أنه جل جلاله بقدرته يجعل العدو وهو فرعون .. يربى ويحتضن من سيزيل ملكه.

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يوحى إلى الملائكة .. ويوحى إلى رسله .. ويوحى لمن يشاء من البشر كما أوحى إلى أم موسى .. ويوحى إلى الصالحين من عباده ، كما أوحى إلى الحواريين .. والحواريون ليسوا رسلاً .. ولكنهم المخلصون من أتباع عيسى .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) ﴾ [المائدة]

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى النحل فى قوله جل جلاله :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾ [النحل]

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى الجماد فى قوله :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾

[الزلزلة]

إذن : فالوحى من الله ليس للأنبياء فقط.. ولكن لمن شاء الله سبحانه وتعالى أن يوحى إليه.

والوحى من رحمة الله بعباده.. ذلك أن الله لا يمكن أن يعطى منهجه مباشرة إلى رسله.. الطبيعة البشرية لا تحتمل إلا أن يكون ذلك رحيماً.. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. ﴿٥١﴾ ﴾

[الشورى]

وعندما أراد موسى أن يرى ربه.. وقال :

﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

قال الحق سبحانه :

﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

وهكذا نرى أن الطبيعة البشرية وطبيعة خَلْق الإنسان من طين لا تجعله يحتمل نور الله.. ومطلب موسى ليرى ربه كان مطلباً محتملاً حيث أنه يريد من الله أن يهيئه بهيئة خاصة حتى يرى ربه وبغير ذلك لا يكون محتملاً هذا بالنسبة للحياة الدنيا.. أما فى الآخرة فيغير الله طبيعة خلقه ليعطيهم الحياة الأبدية.

اختيار الرسول أمياً

الله سبحانه وتعالى قبل أن ينزل الوحى على رسوله ﷺ .. أبعد عنه كل شبهة بشرية .. بأن ما سيتلقاه محمد عليه الصلاة والسلام من وحى السماء ممكن أن يكون من العلم البشرى.. سواء كان ذلك من حضارة الأمم السابقة .. أو مما يمكن أن يقرأه من الكتب وغير ذلك.

ولذلك اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الأمية.. ومعنى أمى.. أى كما ولدته أمه لم يتلق علماً من بشر .. وكانت هذه الأمية شرفاً لرسول الله ﷺ .. لماذا ؟.. لأن الله سبحانه وتعالى الذى اختاره خاتم المرسلين.. أراد أن يعلمه بنفسه.. وأراد ألاّ يتلقى رسوله عليه الصلاة والسلام إلا علم السماء.

ولذلك اختاره أمياً ، وذلك من حُسْن إعداد الحق تبارك وتعالى لرسالة نبيه ﷺ.. فلو أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يقرأ أو يكتب لقالوا أخذ العلم مما قرأ .. أو أخذ العلم من كُتب الأولين أو من حضارات الأمم المعاصرة .. ولذلك اختار له الله سبحانه وتعالى أن ينشأ أمياً على الفطرة النقية ليكون التلقى موصولاً بربه ويكون ما لديه من العلوم والمعارف هى من عند الله.. حتى يعرف الجميع أن كل علم رسول الله عليه الصلاة والسلام جاء من السماء.

ورغم هذا الاختيار وهذه الحكمة.. فد غفلتْ عقول الكفار عنها.. وادعوا أن رسول الله ﷺ يُعلِّمه بشر.. وادَّعَوْا أنه جاء بهذا العلم من أساطير الأولين.

ويرد الله تبارك وتعالى عليهم مذكراً لهم بمعجزة الأمية لرسوله ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يلفت البشرية كلها إلى أنه اختار أن يكون رسوله ﷺ أمياً.. حتى يرد على مـا يدعيه أنصار الباطل وأعداء الإيمـان .. من أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أتى بالقرآن من عنده .. ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه : لو أنك كنت تقرأ أو تكتب قبل أن تأتيك النبوة ، فربما كـان ذلك حجة لأنصار الباطل أن يقولوا إن هذا القرآن من عندك.. ولكنك لا تقرأ ولا تكتب.. ولم تقرأ كلمة واحدة فى حياتك قبل الرسالة ولا كتبت كلمة واحدة. فأنت بالمعانى موصله وبصوت السماء منطقه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه]

إذن : فحجتهم باطلة لا سند لها من الحقيقة أو الحق.. وإنما هى مكابرة لعدم الإيمان وحجة للكفر ، وحُجَّتهم مردودة عليهم، وفى ذلك يقول الله جلَّ جلاله لنبيه ليرد على دعاوى أهل الباطل :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

وهكذا يطلب الحق سبحانه وتعالى من رسوله أن يرد عليهم أنه عاش معهم أربعين سنة أى عمراً كبيراً.. ولم يَقُلْ لهم أنه أوحى إليه ولم يأتى بشىء من عنده.. ولو أنهم فكروا بعقولهم فى هذا العمر الذى قضاه الرسول ﷺ بينهم قبل أن يوحى إليه.. وأنه لم يدع شيئاً لكان ذلك كافياً لكى يصدقوه.. وإذا قال قائل : إنه نوع من

العبقرية التى ربما تظهر على عـبد من عباد الله رغم أنه لم يتعلم ولم يقرأ.. نقول : أى عبقرية هذه التى تظهر فجأة فى سن الأربعين.

إن العبقـرية والنبوغ يظهران عـادة فى سنٍّ مبكرة ، ولا ينتظران حتى هـذه السن .. فإذا قيـل ربما ظهرت العبـقرية والنبـوغ فى سن مبكرة .. وكـتمهـا رسول الله ﷺ حتى سن الأربعـين .. نقول : ومن أدرى محمـداً أنه سيعيش إلى سن الأربعـين .. وهو يرى أباه يموت قبل أن يولد .. وأمه تموت وهو لا زال طفلاً .. فينشأ يتيم الأب والأم.

فكل توقعات حيـاته أن الموت يخطف الناس فى سنٍّ مبكرة كما خطف أباه وأمه.. فهل يكتم هو عبقريته حتى سنِّ الأربعين.. لو أن أباه وأمه أعز الناس على نفـسه وأكثرهم تأثيراً فى حيـاته.. عاشا حتى بلغا سن الستين أو الأربعـين.. لقلنا : إنه توقع أن يعيش كما عاشـا.. ولكن هذا الموت المبكر لا يضع فى نفسه الثـقة أبداً فى أنه سيعيش حتى يبلغ هذه السن.

وهكذا كانت الأمـية شرفاً لرسـول الله ﷺ وضرورة للرد على دعـاوى البـاطل .. ويقـيناً للمـؤمنين لأن كل مـا أتى به رسـول الله ﷺ .. إنما هو من وحى السـماء ، وللأسف فـإن هذه الدعاوى مازالت تدور فى أفكار بعض أدعـياء الفكر بغية الظهـور البغيض والتعـالى المقـوت الذى لم يلبث إلا أن يتلاشى حـيث إنه باطل ، والباطل لا يغنى من الحق شيئاً .

ولقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن ينشـأ محمد ﷺ يتيماً حتى لا يقال أنه استخدم نفـوذ أبيه.. أو أنه استند إلى سلطان غير سلطان الله.. وحتى وهو طفل حين تعرضه أمه على المراضع.. حتى ينشأ فى البادية قوياً.. وتاتى النساء من البادية ليخترن ذلك الطفل الذى سيـقُمْنَ بإرضاعـه.. وهُنَّ يبحثْنَ عن طفل له أب حـتى يُجزل

لَهُنَّ العطاء.. نجد أنه ما من امرأة إلا وعُرض عليها رسول الله ﷺ.. فإذا قيل لها بأنه يتيم الأب ترفض أن تأخذه لأن كلاً منهن كانت تريد المال من أبي الطفل.. فإذا عرفت أنه يتيم أعرضت عنه.. إلا حليمة السعدية التي كانت بين المراضع ولم تجد طفلاً لترضعه.

وعندما وجدت حليمة نفسها أنها الوحيدة التي لم تَفُزْ بطفل ترضعه قالت : والله إني لأكره أن أرجع بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً.. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذه عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.. وتقول حليمة : وما حملني على أخذه إلا لأني لم أجد غيره.

وتأخذ حليمة الطفلَ اليتيمَ فيمتلىء بيتها بالبركة.. وتجد ماشيتها المرعى فتسمن وتكبر.. وماشية القوم كلهم لا تجد مرعى فى أرض بنى سعد الجدباء.. وكانت أغنام حليمة تحلب اللبن الوفير ، وغنم قومها لا تحلب قطرة لبن.. حتى كان القوم يقولون لرعاتهم : اسرحوا حيث تسرح غنم حليمة السعدية.

وتمضى المعجزات.. وفى يوم من الأيام بينما كان رسول الله ﷺ فى البادية يلعب مع عبدالله بن الحارث ، وهو ابن حليمة مرضعة رسول الله عليه الصلاة والسلام وأخيه فى الرضاعة.. جاء رجلان عليهما ثياب بيض .. ثم أخذاه ﷺ وشقَّا بطنه وصدره ، واستخرجا من قلبه شيئاً أشبه بالعَلَقة السوداء.. ثم غسلا صدره بشيء يشبه الثلج.. ثم قال أحدهما لصاحبه : زِنْه بعشرة من أمته فرجحت كفته.. فقال : زنه بمائة من أمته فرجحت كفته.. ثم قال : زِنْه بألف من أمته فرجحت كفته.. فقال : والله لو وزنته بأمته كلها لَرجحت كفته.

وقد قيل : إن الملكين نقّيا قلب رسول الله ﷺ وهو طفل من غمزة الشيطان التى توجد فى كل إنسان.. حتى لا يكون فى قلبه شىء إلا التوحيد .. وهنا أسرع عبد الله إلى أمه وأبيه وهو منزعج .. وقال لهما : ذلك أخى القرشى أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقًا بطنه وصدره .. فخرجت حليمة وزوجها منزعجين.. فوجدا رسول الله ﷺ واقفاً كأنه لم يُصَبْ بسوء .. وحينئذ خافت حليمة أن يحدث له شىء ، فقررت أن تعيده إلى أمه.

خيار من خيار

وهكذا نشأ رسول الله ﷺ مُعداً إعداداً كاملاً من ربه لتلقى الرسالة وتلقى الوحى.. جعله الله بشراً لأن بشرية الرسول حتمية حتى يتلقى عنه قومه المنهج.. وبعثه فى قومه حتى يكون معروفاً منهم بالخلق الكريم والأمانة.. وجعله يتيماً حتى لا يقال : إنه قد استفاد من نفوذ أبيه أو مكانته.. وجعله أمياً حتى لا يقال : إنه أخذ شيئاً من حضارة البشر.. وجعله خياراً من خيار من خيار.. ورسول الله ﷺ يقول:

«إن الله خلق الخلق، فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مُضَر ، واختار من مضر قريشاً، واختار من بنى قريش بنى هاشم ، واختارنى من هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار . فمَنْ أحبّ العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم»[1]

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٧١/١) والحاكم فى مستدركه (٧٣/٤) من حديث ابن عمر.

ويقول ﷺ :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم»[1].

ولابد أن نقف هنا عند قول المستشرقين : إن هناك تعارضاً بين الحديث الشريف ، وبين قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام]

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ من سلالة سيدنا إسماعيل.. وإسماعيل ابن خليل الرحمن إبراهيم.. ويتوهم البعض أن آزر والد سيدنا إبراهيم عليه السلام.. نقول : إن علينا أن نعرف أنه من عادات العرب أن ينادى الابن عمه بقوله أبى فلان.. أما إذا نادى أباه.. فإنه يقول أبى فقط ولا يناديه باسمه.. وخليل الرحمن إبراهيم عندما نادى آزر لم يَقُلْ أبى فقط.. وإنما قال أبى آزر.

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة آزر ليبين لنا أنه ليس والد إبراهيم ، وإنما هو عمه.. وفى ذلك يُوضِّح لنا الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة]

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/١٦٥، ١٦٦) من حديث واثلة بن الأسقع ، ومسلم فى صحيحه (صفحة ١٧٨٢).

هنا نرى أن إبراهيم هو الجد، وإسحق هو أبو يعقوب، وإسماعيل عم يعقوب، ولكن الآية الكريمة تجمع بين إبراهيم وإسماعيل وإسحق وتصفهم جميعاً بأنهم آباء.. لذلك فإن العم يناديه أبناء أخيه بلقب أب.. ولكنهم يُفرِّقون بين الأب الحقيقى والعم بأن يضيفوا الاسم عندما ينادون العم فيقولوا : يا أبانا فلان.. إذن : فآزر هو عَمّ إبراهيم.. وليس هناك تعارض بين الحديث الشريف والقرآن الكريم.

ولقد كانت الأربعون عاماً التى عاشها رسول الله ﷺ قبل الوحى رمزاً فى الاصطفاء الربانى .. فقد كان طفلاً يتسم سلوكه بالاتزان.. ولا يعرف اللهو .. وكان وهو صبى يسعد الكبار بصفاء حكمته.. كان جده عبدالمطلب يقدمه على أبنائه ويقول : إن لابنى هذا لشأناً .. وكان عمه أبو طالب يحبه حباً يفوق حبه لأولاده.

ويقول : إن محمداً لمبارك .. وكان أفضل القوم مروءة وأكثرهم حلْماً.. وأصدقهم حديثاً .. كان يرعى الغنم ، وكأنها تدريب على الصبر والحلم والشفقة وفهْم اختلاف الطباع .. ولم يكن عمل محمد قبل الرسالة إلا صالحاً وإلا خيراً .. يجرى الرجال إلى خديجة رضى الله عنها يرجون منها الزواج .. ولكنها هى التى ترسل إلى محمد ليكون زوجاً لها.

وهكذا أراد الله له زوجة تعطيه حنان الأم وحكمة الفهم وحُسْن الاستنباط.. هى أكثر قومها مالاً.. وأعظمهم شرفاً.. يتاجر لها فى مالها ، فيزيده الله لها بركة.. وكان كل هذا مقدمة لتخفيف عبْء الوحى العظيم عن رسول الله ﷺ.. فهو النبى القادم.. وكان لا بد

من إعداد مُسْبق.. بأن يلتقى رسول الله ﷺ مع الوحى.. وكان هذا الإعداد هو القدرة على التأمل لكل ما يجرى حوله من أمور.

ولذلك ـ قبل الرسالة ـ كان رسول الله ﷺ عندما يأتى شهر رمضان كان يعتكف فى غار حراء.. يتأمل الدنيا ويناجى ربه.. وكانت الخلوة بعيداً عن مشاكل الحياة.. والتأمل فيما يحدث فى الكون.. وكان عليه الصلاة والسلام وهو يعتكف فى غار حراء يستطيع أن يرى الكعبة.. فكان نظره لا يغيب عن بيت الله الحرام طوال فترة اعتكافه.. وكان الصفاء الروحى يحيط برسول الله ﷺ طوال بقائه فى الغار.. حيث لا صخب ولا ضجيج.. كان هذا الصفاء هو الذى يعطى لنفسه القوة لما هو قادم.. وهو اللقاء مع الوحى.

ولقد كانت معجزة النبى الخاتم لا بد أن تكون معجزة كبرى.. والقرآن معجزة كبرى.. وحتى يتنزل القرآن على رسول الله ﷺ كان لابد من رسول مُقرَّب إلى الله ينزل على محمد بالقرآن.. وكان جبريل الملك المكلَّف من الحق سبحانه وتعالى أن ينزل بالوحى على رسول الله عليه الصلاة والسلام.

معجزات العموم والخصوص

ولقد شاءت قدرة الحق سبحانه وتعالى الموجدة لهذا الكون.. أن تصطفى محمداً رسولاً.. وأن تصطفى جبريل ملكاً كريماً للرسالة القرآنية.. ذلك أن القدرة البشرية لا تستطيع أن تتلقى مباشرة عن الله.. وكل أنبياء الله من البشر.. وكلهم لم يكن لهم القدرة على التلقى المباشر من الله.. لأنه ليس فى مقام قدرة المخلوق أن يأخذ من الخالق الاكرم.

ولقد كانت إرادة الله أن تكون معجزات الرسل خروجاً على قوانين وأسباب الحياة ، وجاءت معجزة محمد ﷺ معجزة المعجزات ؛ لأن كل معجزة لرسول كانت لقومه.. كانت معجزة حسية.. مَنْ رآها آمن بها.. ومَنْ لم يرها قرأها خبراً.. ولولا أن معجزات الرسل ذُكرت فى القرآن لتُركت لعقول الناس.. مَنْ شاء صدقها ومَنْ شاء لم يصدقها.. ولكن لأن الله تبارك وتعالى ذكرها فى قرآنه فآمنا بها.. ولكن الرسل السابقين .. فقد كانت معجزاتهم حسية أو كونية.. رآها من عاصروهم.. فنحن الآن لا نستطيع أن نأتى بعصا موسى لنقول : إن هذه معجزته.. ولا أن نعيد معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص التى جاء بها عيسى.

معجزة الخصوص الخالدة

ولكن رسول الله محمداً ﷺ هو خاتم المرسلين.. لذلك جعل الله سبحانه وتعالى معجزته هى نفس منهجه.. وهو القرآن الكريم يعطينا فى كل عصر معجزة ، فكل الرسالات التى سبقت رسول الله ﷺ كانت محدودة الزمان والمكان .. ولكن رسالة الإسلام جاءت إلى الناس كافة فى كل زمان ومكان بخلاف معجزات حسية وكونية عايشت حياته طفولة وشبيبة ورسالة .. واختار الله سبحانه وتعالى لانطلاق هذا الدين أول بيت وضعه للناس فى الأرض .. وقد وهب الله محمداً قبل البعث حكمة يوسف فى تأويل الأحلام .. وكان لا يرى رؤيا إلا تتحقق.. ووهبه الله الصدق

الفطرى والصدق اليقينى فى أن ما يقوله محمد هو الحق. ووهبه الله القدرة على أن يرى الكون ببصيرة الإيمان، وليس بالقلب المطفأ من النور الذى كان عليه أهل زمانه.

أولى آيات الوحى

كل هذا كان إعداداً لاستقبال القرآن.. وتمضى الأيام ومحمد فى الغار يتأمل ويتعبد وتصفو نفسه ويرى نور الحق إلى أن يأتى المَلَكُ الكريم جبريل.. ويُفاجأ محمد بالملك وهو يحتضنه بقوة.. ويقول له اقرأ.. ويحدث اللقاء بين نور مخلوق منه ملك.. وبشرية مخلوق منها رسول الله ﷺ.. يُحدث هذا اللقاء اهتزازاً شديداً فى جسد رسول الله ﷺ.. وعندما يبلغ منه الجهد آخر مبلغه.. يتركه الملك حتى يستريح الجسد البشرى من قوة اللقاء بينه وبين نور الملك.. ثم يحتضنه جبريل مرة أخرى حتى يبلغ الجهد منه أكبر مبلغ فيقول الملك : إقرأ.. ويقول رسول الله ﷺ بصدقه الفطرى : ما أنا بقارىء.. أى : لا أستطيع أن أقرأ.. ويبلغ الجهد من رسول الله ﷺ .. فلم يَعُدْ يحتمل لقاء جسد بشر ونور الملك.

وعندما يستريح رسول الله ﷺ ويستعيد قواه.. يضمه الملك ضَمَّة ثالثة ، ويقول له :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① ﴾ [العلق]

والأمر بالقراءة لا يكون أمراً إلا إذا كان فى استطاعة المأمور ولكن صدور الأمر من الله جل علاه لمحمد ﷺ بالقراءة يعنى أمراً لفطرته النقية الطاهرة وما تحويه من قيم فاضلة تكمن فيها

مرادات الله ، فكأن الأمر يكون فى استطاعـة المأمور إذا كان الأمر أهلّه لذلك أزلاً ، وقد كان .

ويَصل محمد عليه الصـلاة والسلام إلى ذروة الجهد ويتصبب عرقاً.. إنَه لـم يَعُدْ يحتمل لقـاء آخر.. لقد بلغ الجسد الـبشرى من الجـهد أقـصى مـا يطيق.. وحينئـذ ينصـرف الملك جـبريل عليـه السلام.. ويترك رسول الله ﷺ فى الغار.

مع هذا اللقاء الذى هـو أشرف لقاء فى البـشرية كلها لنا أكـثر من وقفة.. السؤال الأول : كيف يأتى جـبريل عليه السلام ويطلب من رسول الله ﷺ أن يقـرأ ؟.. مع أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب.. وهل علم الله الذى أعد محمداً أمـياً لا يقرأ ولا يكتب قد غاب عنه ذلك؟.. وأيهمـا كلامه صـحيح.. الملك الذى قال اقـرأ ؟.. أو رسول الله ﷺ الذى قال : ما أنا بقارىء ؟.

لقد كان طبـعيا أن يقول الرسول : مـا أنا بقارىء.. ولكن الذى يثير التساؤل لماذا قال له جـبريل عليه السلام : اقرأ ؟.. نقول : إن جبريل حين قال اقرأ كـان صادقاً.. وأن رسول الله ﷺ حين قال : ما أنا بقارىء كان صـادقاً ؟.. وكيف يكون ذلك، ورسول الله ينفى ما يطلبه منه جبريل.. نقـول : إن جبريل نزل بأُولَى آيات الرسالة على محمد ﷺ وقال له :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) ﴾ [العلق]

أى : أن الله يعلم يا مـحـمـد أنك لا تقرأ ولا تكـتب. ولكنك على الفطرة النفسية تتلقى القـراءة من العناية الإلهية فاقرأ باسم ربك. أى : أن الله هو الذى سيـعلمك ؛ لتكون أيهـا الرسول الأمى مـعلماً

للبشرية كلها تأخذ عنك الهدى والعلم الحقيقى والنور.. أنت أيها النبى الأمى سيعطيك الله من العلم ما يفوق علم البشر جميعاً. فقد تخليْتَ فى الغار ، وتحليْتَ بالتوحيد ، فتجلى الله عليك بالمراد .

أما أولئك الذين أفنوا أعمارهم فى القراءة والكتابة ، ووصلوا إلى أكبر درجات العلم.. سيأتونك أنت أيها النبى الأمى ليأخذوا عنك علم الدنيا والآخرة ، ويتتلمذوا على يديك لتصبح أنت المعلم، وهم الذين يأخذون عنك العلم لأنك لم يُعلِّمك بشر.. ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى علَّمك.. وعلّمك ما لم تعلم البشرية كلها.

وهكذا كان اللقاء الأول بين رسول الله ﷺ وجبريل.. لقاء يخبره فيه أنه سيحمل العلم إلى الدنيا كلها.

أما اللقاء الثانى فهو لقاء استقبال القرآن المعجز على مدى الأيام والزمان.

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

فهذا النبى الأمى الذى لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة سيصبح مُعلِّماً للبشرية كلها.. وكانت هذه أول معانى المعجزة لرسول الله ﷺ يقول الحق سبحانه :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة]

ورقـة بـن نـوفـل
وبشارته للنبى ﷺ

أخذ رسـول الله ﷺ يجول ببصـره فى الغار.. ثم انطلق مسرعاً إلى بيته.. إلى خديجة رضى الله عـنها وجسده الشريف يرتجف.. ودخل الرسـول عليه الصـلاة والسـلام وهو مضطرب فلمـا رأته خديجة أحـست بأن شيئاً جليلاً قد حـدث ، وأرادت خديجة رضى الله عنهـا أن تتـحـدث معـه.. ولكنه ﷺ كـان فى حـالة لا تسـمح بالحديث فقال : « زملونى زملونى »[1].. أى : غطونى.

ولما ذهب عن رسـول الله ﷺ الرَّوْع.. روى لخديجـة رضى الله عنها ما حدث.. وقال لها : قد خشيت على نفسى أن يكون أصابنى مَسٌّ من الجن.. فقـالت خديجة : كـلا والله لا يخزيك الله أبداً.. إنك لتصل الرحم .. وتَقْرى الضيف.. وتحمل الكَلَّ.. وتُـكسب المعدوم.. وتُعين على نوائب الحق.

وكـانت خـديجــة رضـى الله عنهـا فى ليلـة نزول الوحى قـد انتظرت رسول الله ﷺ ، ولكنه تأخر ، فبـعثت رسلها فعادوا دون أن يجـدوا رسول الله .. ولم تكد خـديجـة تسمع مـا قاله رسـول الله ﷺ إلى ابن عمـها ورقة بن نـوفل.. وكان شيـخاً كبـيراً يدين بالنصـرانية ، وقـرأ كـتبـهـا.. وسـمع الكثـير من أهل التـوراة والإنجـيل.. وقـالت له : يا ابن عم اسـمع ما حـدث لابن أخـيك ، فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى وسمع.

فـقال ورقـة بن نوفل : لقد جـاءك الناموس الأكـبر الذى كـان ينزل علـى مـوسى. والذى نفـسـى بيـده إنك لنبـى هذه الأمـة..

(1) متفق عليه . أخرجـه البخارى فى صحيحه (3) ومسلم فى صـحيحه (160) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ولتُكذبن ولتُـؤذين.. ليـتنى أكون حـياً إذ يُـخرجك قـومك.. فقـال رسول الله ﷺ : أو مُخرجيَّ هم؟.. فقال ورقة : نعم.. لم يأت أحد بمثل مـا جـئْت به إلا عُـودى.. إنْ أدركتُ يومك لأنصـرنك نصـراً مظفراً.

ليلة القدر

وهكذا كـانت ليلـة نزول القـرآن أول لقـاء بين رسـول الله ﷺ وجبريل عليـه السلام.. لقاء فى الغار الذى طالما تعبّد فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام وتأمـل.. لقاء بين كلام الله وأشرف خلق الله.. إنها ليلة القـدر التى جعلها الله خـيراً من ألف شهـر.. قيامـها والعبـادة فيـها تسـاوى فى الثواب عـبادة أكـثر من عبـادة ثلاثة وثمانين عـاماً.. لقد كـرم الله هذه الليلة تكريماً عظيمـاً.. لأنها هى الليلة التى بدأ القرآن فيها يمارس مهمته فى الأرض.

ولقـد دار جدل كبـير فى أن الـقرآن هو كـلام الله.. وكلام الله صفة من صـفاته.. وكلام الله أزلى فكيف يقـال إن القرآن قد نزل فى هذه الليلة؟.. نقول : إن القرآن كلام الله أزلى موجود فى اللوح المحفـوظ.. وأنه ليلة نزول جـبريل نزل القـرآن إلى السماء الـدنيا ليمـارس مهمتـه فى الأرض.. ونزل إلى السماء دفعـة واحدة.. ثم نزل به جبريل كمـا شاء الله.. ووقتما شاء الله.. تثبـيتاً لرسول الله وإبلاغه لـلمنهج.. وطبقاً لـلأحداث التى قدَّرها الله لـنزول القرآن.. وكـان نزول الوحى الكريم بـأول سـورة فى القـرآن الكريم.. هو بداية الهداية للكون كله.

لقد اختار الله محمداً عليـه الصلاة والسلام رسولاً ليبلغ الدنيا

آخر بلاغ من الله.. بالمنهج المكتمل لمسيرة الإنسان فى الكون حتى يوم القيامة.. وما دام هذا البلاغ من الله قد جاء آخر بلاغ.. فلابد أن يكون مستوفياً لكل ما يمكن أن يؤدى معنى الخير فى حركة الحياة بحيث لا يترك داء إلا عالجه.. ولم يأتِ هذا المنهج ليعالج الداءات ساعة بداية مهمته فى الأرض.. بل جاء ليعالجها إلى يوم القيامة.. ولذلك فإن القرآن الكريم معجزة وقت نزوله.. ومعجزة فى يومنا هذا.. ومعجزة للأجيال القادمة التى ستأتى بعدنا حتى قيام الساعة.

مدينة العدل

لقد وضع القرآن الكريم المبادىء التى لا يمكن أن ينصلح الكون إلا بها .. ولأن الله سبحانه وتعالى عليم لا يَخْفَى عليه شىء فإنه وهو المشرع الأعلى هو وحده القادر لأن يُشرِّع لكل زمان ومكان .. ذلك أن البشر حين يضعون تشريعاتهم يعرفون أشياء وتغيب عنهم أشياء .. ولذلك نرى القوانين البشرية تتبدل وتتغير.. ولا يمضى على القانون البشرى سنوات حتى يحتاج إلى تعديل.. لأن هناك مشكلات ظهرت .. لم يكن الذين وضعوا هذه القوانين منتبهين لها.

ولذلك فإن القوانين البشرية تعانى من كثرة التبديل والتغيير والإلغاء والاستحداث.. ولكن الحق سبحانه وتعالى حينما يضع قانوناً لا يغيب عنه شىء لأنه عليم بما فى كونه.. عليم بما سيحدث فيه إلى يوم القيامة.. عليم بالنفس البشرية التى خلقها.. ولذلك يأتى التشريع الإلهى صالحاً لكل زمان ومكان.. وأنه من

وضع العليم القدير.. والله سبحانه وتعالى حكيم.. ولذلك فهو يضع كل شيء في موضعه بحكمة واقتدار لتكون الدنيا كلها مدينة للعدل .

وبظهور العدل في الدين الجديد.. بدأ فجر الإسلام يشرق على الدنيا. ليحكم عصورها ويُحكم سلوكها .

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾ [الشعراء]

الفصل الرابع

الرسول يدعو عشيرته

جاءت الرسالة إلى محمد ﷺ. وكان على رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يواجه مجتمعاً من أفسد مجتمعات الارض.. مجتمعاً يملؤه الطغيان والكفر حتى حرمة بيت الله الحرام.. فادخل الأصنام إلى البيت الذى اختاره الله فى الأرض.. وعمل على فساد أطهر بُقْعة فى هذا الكون.

وكان على الدين الجديد أن يواجه هذا كله.. أن يطهر البيت من الأصنام.. أن يعلن المساواة بين الناس فقيرهم وغنيِّهم.. أبيضهم وأسودهم.

لقد جاءت الآية الأولى فى القرآن الكريم بوسيلة العلم للإنسان وهى القلم.. ووسيلة المعرفة للإنسان وهى القراءة.. فما لم يدون بالقلم ضاع وانتهى.. ومن لم يقرأ لا يتعلم.

والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وخلق فيه القدرة على أن يرث الحضارات.. والعقل البشرى هو القادر وحده بين مخلوقات الارض على أن يرث الحضارات.. ويزيد عليها.. لذلك فإن كل جيل من البشر يبدأ من حيث انتهى الجيل الذى قبله ويضيف.. بذلك تتقدم الحضارة الإنسانية إلى أن تبلغ ما قدّره الله لها.

والإنسان له وسائل معرفة خلقها الله سبحانه وتعالى له ليتعرف بها على الكون.. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

لماذا فضَّل الحق سبحانه وتعالى السمع على البصر؟ لأن

السمع هو وسيلة التعلم الأولى فى الإنسان.. فأنت ترى لنفسك.. ولكنك تسمع عن غيرك.. والأعمى يستطيع أن يتعلم.. ويصل إلى أعلى درجات العلم بالسمع بأن يقرأ له غيره.. ولكن الأصم لا يستطيع أن يكون عالماً.

والله سبحانه وتعالى حدد فى هذه الآية الكريمة وسائل العلم التى أعطاها الإنسان.. فالإنسان يسمع ويرى ، ثم يستقر العلم فى فؤاده ، فيُكوِّن حقائق فى نفسه يتصرف على أساسها.. هذه هى وسيلة العلم البشرى.. وما زالت هى الوسيلة حتى الآن.. مع أن الإنسان له حواسٌ أخرى كاللمس والذوق وغير ذلك ، ولكنها كلها لا تعطيه الحضارة الإنسانية ، بل تعطيه مجرد معلومات عن أشياء حوله ، ولكنها لا تنقل له حضارة الإنسان.

ولكى تعلم يقيناً أن البصر وحده لا يكفى للعلم.. وأنت تشاهد فيلماً فى التليفزيون أغلق مفتاح الصوت وشاهد بعينيك فقط.. لن تفهم شيئاً.. حاول أن تستخدم باقى حواسك كلها غير الأذن لن تفهم شيئاً.

إذن : الأذن هى وسيلة التعلم الأولى وهى تبدأ العمل فور ولادة الطفل.. بينما العين تأخذ أياماً حتى تبدأ فى أداء مهمتها.. ولذلك كان القرآن كلاماً يُقرأ وليس شيئاً يشاهد.. لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يستخدم الوسيلة الحقيقية للعلم فى الإنسان ، وهى الأذن حتى يبلغ العلم القرآنى كل الناس.

رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحى.. ظل أياماً وهو حائر فيما

رأى وسمع.. وأرادت السيدة خديجة رضى الله عنها أن تقطع الشك باليقين.. عندما جاءه جبريل وهو فى بيت خديجة قالت له: أترى الملك الآن؟.. قال : نعم فكشفت خديجة عن وجهها وسألته.. أترى الملك الآن؟.. قال : لا.. قالت خديجة : إنه مَلَك وليس شيطاناً.. لأنها علمت بفطنتها أن الشيطان وقح لا يختفى عندما تزيح المرأة الخمار عن وجهها ورأسها.. أما الملك فهو سامع مطيع لأمر الله.. ويطمئن قلب الرسول ﷺ ويرتاح فؤاده ، ولقد كانت خديجة رضى الله عنها أول مَنْ آمن بالله ورسوله.. صدقت بنبوة محمد.. حتى أنها بُشِّرت ببيت من اللؤلؤ فى الجنة.

انقطاع الوحى فترة

ويفتر الوحى عن رسول الله ﷺ.. ويذهب الرسول إلى الغار لعلّ الوحى يأتيه فلا يأتيه جبريل.. ويذهب الرسول إلى بيت خديجة لعلّ الوحى يأتيه فلا يأتى.. ويبدأ الشك فى نفس الرسول الكريم.. ما الذى حدث؟.. هل هو رسول الله حقاً أم لا؟

وبينما الرسول يمشى فى شِعْب من شعاب مكة.. سمع صوتاً يقول له : إنك حقاً لرسول الله.. ونظر رسول الله ﷺ أمامه فلم يَرَ أحداً.. ونظر خلفه فلم ير أحداً ، ونظر عن يمينه وعن شماله فلم يجد أحداً.

إذن : من أين جاء هذا الصوت.. ورفع رسول الله ﷺ بصره إلى السماء ، فرأى جبريل يقول له : إنك حقاً لرسول الله.. وأحدث هذا الاتصال بين الملك والرسول البشر فى جسد رسول الله هزّة

شديدة.. وتصبَّب العرق من جسده الشريف.. وأسرع إلى بيت خديجة ، واتصال الملك به قد هزَّ جسده.

وعندما دخل سألته خديجة رضى الله عنها : ماذا بك؟. ولم يُجب رسول الله ﷺ لكنه قال : «دثرونى دثرونى» والقتْ عليه الاغطية، فقد كان يرتعد بشدة.. ونزلت أول سورة بعد «إقرأ».. جاءه جبريل وهو فى هذه الحال.. فأوحى إليه قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر]

وانصرف جبريل عليه السلام والرسول ما زال يتصبب عرقاً.. وعندما أفاق أراد أن يخرج.. وانزعجت السيدة خديجة من خروجه وهو فى هذه الحالة.. وقالت له : استرح يا محمد قليلاً.. فقال لها الرسول عليه الصلاة والسلام : «لم يَعُدْ هناك وقت للراحة يا خديجة ».

ثم توالتْ الآيات.. الحق سبحانه وتعالى يطلب من رسول الله ﷺ أن يبدأ إبلاغ الرسالة بأن ينذر المحيطين به ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾

[الشعراء]

من هنا كانت البداية

ويدعو رسول الله ﷺ عشيرته إلى الطعام فى بيته ويقول لهم : «ما أعلم أحداً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به.. لقد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه.. فايكم يؤازرنى على هذا الأمر».

ويرفض كل الحاضرين الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ إلا على بن أبى طالب ، وكان صبياً لم يبلغ الحُلُم فيقول : أنا يا رسول الله عونك.. أنا حَرْبٌ على مَنْ حاربت.. أما أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقد آمن برسول الله ﷺ بمجرد أن بلغه ، ولم يطلب برهاناً ولا دليلاً.. إنما قال : أنا أصدقك.

وبالرغم من الجحود والعداوة التى قابلت بها عشيرة رسول الله دعوته فقد بدأت الدعوة تنتشر ، والناس يدخلون فى الإسلام.. وكان أول مَنْ دخل فى الإسلام بعد أبى بكر رضى الله عنه : الزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .. وأبو عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث ، وسعيد بن زيد رضى الله عنهم أجمعين.

وتمضى كلمة الإيمان فتنتشر دعوة الإسلام.. ويؤمن الناس سراً أولاً.. خوفاً من بَطْش صناديد قريش ، فيجتمعون سراً مع رسول الله فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يتدارسون القرآن.. ويُؤَدُّون الصلاة كما كان يؤديها إبراهيم عليه السلام ركعتين فى كل صلاة.. ويسجدون له سبحانه وتعالى.

قد يتساءل بعض الناس : كيف سجد المسلمون، ولم تنزل الصلاة المفروضة بعد ؟

نقول : إن السجود كان مفروضاً في كل الأديان.. بل إنه قبل أن يخلق آدم كان السجود علامة من علامات العبادة لله سبحانه وتعالى جل جلاله :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. (١٥) ﴾
[الرعد]

وكل مخلوقات الله ساجدة مُسبِّحة في الدنيا والآخرة.. ما عدا الإنس والجان اللذين أُعطوا حق الاختيار في الحياة الدنيا، وسجودهم في الدنيا طَوْعاً.. فإذا أخذنا قول الحق سبحانه وتعالى في سورة يوسف :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾ [يوسف]

وقوله جل جلاله :

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾
[آل عمران]

نعرف أن السجود كان معروفاً ومأموراً به في كل الديانات.

ثم تمضي الدعوة.. ويأمر الله رسول الله ﷺ أن يجهر بالدعوة.. ويذهب النبي عليه الصلاة والسلام إلى الصفا بجوار الكعبة المشرفة وينادي : يا معشر قريش ، يا معشر قريش! فيقبل عليه الناس.. فيقول لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تُغير عليكم ، أكنتم تصدقون ؟ قالوا : نعم.. أنت عندنا غير مُتهم ، وما جرّبنا عليك كذباً قط. قال الرسول : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.. يا بني عبدالمطلب ، يا بني عبد مناف.. يا بني زُهْرة..

يا بنى تميم.. يا بنى مخزوم.. يا بنى أسد.. إن الله يأمرنى أن أنذر عشيـرتى الأقربين .. وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله.

فنهض أبو لهب وصاح قائلاً : ألهذا جمعتنا ؟ تبّاً لك.

مـراحـل الصـراع
بين الحق والباطل

وبدأ الصراع بين الحق والـباطل.. وأحسَّتْ قـرَيش بالخطر.. لقد اختـار الله سبحـانه وتعالى بيـته الكريم فى مكة لتـبدأ منه ضيـحة الحق.. ولتبدأ فى آذان سـادة العرب ؛ لأن قريشاً كانت لهـا السيادة فى الجزيرة العربية.. فى مكة بيت الله الذى يحج إليه الجميع.. ولذلك كانت القـبائل تتحاشى أن تتـعرض لقريش ؛ لأنها تعلم أنهم حـينما يحجُّون سيكونون تحت رحمة قريش ، فيحسبون لذلك ألف حساب.

بدأت صيحة الإسلام فى آذان سادة العرب لتنهرهم.. وليعلموا أن الحق سـبحـانه وتعـالى عندمـا يريد أن ينزل دينه إلى الأرض يجعل الصـرخة الأولى للإيمـان فى آذان السادة من قـريش حتى لا يقال : إنهم قوم ضعفاء التفوا حول الرسول.

ولكن الصـرخـة الأولى كانـت فى آذان أقوى الأقـوياء تهـزهم هزّاً ، ولكن الإسـلام لم يحقق النصـر فى مكة. ولكنه حـققـه فى المدينة.. حتى لا يقال إن قـريشاً سادة العرب انتـصرت لواحد من أبنائها.. ولـكن ليعرف الجـميع أن الله وحده هو الـذى نصر دينه.. وأن محـمداً رسول الله أخـذ العزة بدين الله ، ولم يأخذها بأسـباب البشر.

وأخذ الصراع بين الحق والباطل إلى عدة مراحل.. المرحلة الأولى هي مرحلة الإغراء.. حينما حسب أهل قريش أن رسول الله ﷺ يمكن أن تغريه الدنيا.

والمرحلة الثانية هي مرحلة الإيذاء.. بأن يؤذوا الرسول والمسلمين.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة المقاطعة.. أن تقاطع قريش بني هاشم ، علّهم يُسلّمون لهم رسول الله ﷺ.

والمرحلة الرابعة هي محاولة قَتْل رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وقبل أن تبدأ المرحلة الأولى حاول الكفار أن يُشكّكوا رسول الله فى أنه مكلف بالرسالة. فقالوا لست نبياً ولا رسولاً.. ولكن الله سبحانه وتعالى ثبّته على الإيمان.. وفى هذا يقول الحق جل جلاله:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

ولم يجد هذا التشكيك شيئاً.. فاستمرت الرسالة تنتشر.. وعدد المؤمنين يزداد.. حينئذ قال الكفار : نعطيه الدنيا لعله يترك هذه الدعوة وينصرف عنها.. وقالوا : إن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً.. جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا.. وإن كنت تريد مُلكاً ملكناك علينا.. وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك.. «الرئى هو الجن».. بذلنا من أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه.

ولكن كل هذه العروض ومُغريات الدّنيا لم تُثرْ فى نفس رسول الله ﷺ ولا قطرة من الإغراء.. إنه جاء ليدعو النّاس إلى العمل من أجل الآخرة.. لا يغريهم فى ذلك مال ولا جاه فى الدنيا.. لأن الآخرة هى الحياة الخالدة ، وفيها النعيم بقدرة الله.. ولم تكن الدنيا تساوى عند الله ورسوله جناح بعوضة.

وعندما أراد عمُّه أبو طالب أن يقنعه بالعرض الدنيوى الذى تقدم به كفار قريش.. قال رسول الله ﷺ : «يا عَمِّ والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أبلغ هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته»(1).

وهكذا وضع الرسول الكريم الدنيا التى يتقاتل عليها الناس فى موضعها الحقيقى.. فليست هذه هى الحياة التى يرجوها المؤمن.. إن الدنيا عند المؤمن هى وسيلة للوصول إلى رضا الله فى الآخرة.. وفشل الإغراء.. وفشلت المرحلة الأولى.. واقتنع الكفار أنهم لن يستطيعوا إثناء رسول الله ﷺ عن مهمته بالإغراء بكل كنوز الدنيا.

وبدأت المرحلة الثانية.. قالوا لأنفسهم : إذا كنا لم نقدر على محمد فإننا نقدر على اتباعه.. سنعذب كل مَنْ يؤمن برسالة محمد.. سنعذبهم تعذيباً يصل إلى حدِّ القتل.. حينئذ سينصرف الناس عنه ولن يجد واحداً يؤمن برسالته.. وبدأت مرحلة التعذيب.. وكان آل ياسر هم الذين قدموا أول شهداء فى الإسلام.. وآل ياسر جاءوا من اليمن وأسلموا فى مكة.. وكانوا ياسر

(1) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (1/266) معزواً لابن إسحاق.

وزوجته سمية وعمار بن ياسر.. حاول أبو جهل والكفار أن يفتنوهم عن دينهم فلم يُفلحوا.. فأخذوهم إلى البطحاء ، وراحوا يعذبونهم.

ومر رسول الله ﷺ فرآهم يُعذبون.. فقال :

«صبراً آل ياسر. فإن موعدكم الجنة»[1] فظل أبو جهل يطعن سمية بحربته فى بطنها ، حتى قتلها وقتلوا زوجها.. وتوالت أحداث التعذيب والإيذاء على المسلمين الذين كانوا قلة وكانوا أذلة.. ولكن هذا التعذيب لم يجعل واحداً منهم يرتد عن دينه ، فلقد دخل قلوبهم نور الإيمان.. وتمسَّكوا بالدين الحق.

كان الواحد منهم يوُضَع عارياً على الصخر الملتهب ، ويُوضَع الحجر الثقيل فوق صدره ويضرب بالسياط.. فيقول : أحد أحد.. وكانت السماء ترقب ما يحدث.. وكان الحق سبحانه وتعالى يُنزل الآيات التى تُثبِّت المؤمنين وتُبشِّرهم بالنصر.. فنزلت الآية الكريمة:

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

وعندما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أىُّ جَمْعٍ هذا ونحن قلة مستضعفون؟. فلما جاءت غزوة بدر وانهزم الكفار ، وَوَلَّوْا الأدبار قال : صدقت يا ربى :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

إيذاء الرسول ﷺ

ولم يَسلم رسول الله ﷺ من الإيذاء.. فكانت أم جميل : زوج أبى لهب.. تلقى فى طريقه القاذورات والأشواك ، وهو ذاهب

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١٤٠) من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ليصلى فى الكعبة.. وعندما نزلت السورة الكريمة :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

أسرعتْ أم جميل ومعها حجر ضخم إلى الكعبة.. لتلقى الحجر على رأس رسول الله ﷺ.. وكان الرسول الكريم يجلس بجوار أبى بكر.. ونظرت فلم تره.. وسألت أبا بكر : أين صاحبك؟.. فسكت.. وانصرفت.

وقال أبو بكر لرسول الله ﷺ أنها لم تَرَك .. فقال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : لقد أخذ الله ببصرها عنى[1] .

وذهب أبو جهل ليقتل رسول الله ﷺ بحجر ضخم ، وانتظر فى الكعبة حتى جاء رسول الله ﷺ وسجد.. وحينئذ انطلق أبو جهل لينفذ ما أراده.

وقبل أن يصل أبو جهل إلى مكان رسول الله ﷺ سقط الحجر من يده.. فانصرف وقد ملأه الرعب.. فسألوه : ماذا حدث؟.. قال : رأيت وحشاً غريباً كاد يفتك بى.. وسئل رسول الله عليه الصلاة والسلام عن هذا . فقال : هذا جبريل ، ولو تقدم أبو جهل خطوة لهلك[2].

واستمر الإيذاء ، ولكن نور الله كان أقوى من أسباب البشر.

وفى كل يوم يتزايد عدد المؤمنين بدين الله.. كان من قوة هذا الدين أنه يُفرِّق بين المرء وزَوْجه.. وبين الأب وابنه.. فالقلوب المؤمنة لا تعرف إلا قوة الإيمان .. ولا تتعلق بالأنساب ولا بالأزواج.

وفشلت أسباب البشر فى أن تمنع نور الله من أن يدخل القلوب.

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٥٦) .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة (١/٢٩٩) .

حيرة قريش

كان كفار قريش فى حيرة من هذا الدين الجديد.. أى شىء هذا الذى يمتلك القلوب ، ويسيطر على النفوس حتى لا ترى إلا الله؟.. ولا ترغب إلا فى دين الله.. إن هذه القوة فوق قوة البشر.. ولم يستطيعوا تعليلها.. وقالوا : ساحر سحر أعين الناس وقلوبهم.. ونسوا أن المسحور لا يملك إرادة مع الساحر.. فقالوا : مجنون فردَّ الله عليهم بقوله تعالى:

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

وكان هذا أبلغ ردّ.. لأن المجنون لا يمكن أن يكون على خُلق عظيم لأنه لا يعقل تصرفاته.. وإذا جلس مع الناس.. فإنه بدون سبب يشتمهم أو يسبهم.. وتصرفاته كلها ليس فيها خلق عظيم أو غير عظيم ؛ لأنه لا يدرى ماذا يفعل.

وقالوا : شاعر ، ونسوا أن رسول الله ﷺ لَبِث فيهم أربعين سنة قبل البعث لم يَقُلْ فيها بيتاً واحداً من الشعر.. ولم يشتهر بالبلاغة الشعرية.

ولكن هذا هو خلق الكفار.. يُعميهم الله فلا يفطنون إلى أنهم فى ادعاءاتهم يُقدِّمون الدليل الإيمانى على صحة رسالة محمد ﷺ.. بل إنهم حين غاب الوحى عن رسول الله ﷺ فترة.. قالوا : ربُّ محمد قلاه.. - أى : تركه وهجره - وهم لم يدروا أنهم بذلك قد فضحوا أنفسهم.. لقد كانوا يدَّعُون أن ما يُوحَى إلى محمد ﷺ لا يأتيه من رب كريم.. بل إنه يفترى عليهم.. فلما توقف الوحى فترة اعترفوا أن لمحمد ﷺ ربّاً يُوحِى إليه.

وأن هذا الوحى يأتى من الله.. فقالوا : ربُّ محمد قَلاه.. ونسوا وهم يدّعون ذلك أنهم يثبتون الرسالة.. ويثبتون أن وحياً من الله ينزل على رسوله.. فنزلت الآية الكريمة :

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾

[الضحى]

إيمان المسلمين الأوائل

ونحن نتساءل : لماذا ترك الحق المسلمين الأوائل يواجهون هذا التعذيب ؟. ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادراً من أول يوم أن يُعزَّ دينه ، وأن يُوقف إيذاء الكفار عن المؤمنين برسول الله؟. لماذا اختار الله سبحانه وتعالى ذلك الرسول اليتيم الأمى ليحمل الدين الخاتم إلى الدنيا كلها؟.

ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادراً على أن يُنزل رسالته على أحد كبار زعماء القبائل فى مكة أصحاب النفوذ والسلطان.. ألم يكن هذا ممكناً؟.. وكان فى هذه الحالة سيكون عدد المؤمنين كبيراً، وتكون الدعوة أسهل فى انتشارها وفى عدد المؤمنين بها.. وتكون مقاومة الدعوة أقل.. لقد تمنى الكفار ذلك.

وينقل الحق سبحانه وتعالى الصورة لنا ، فيقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾

[الزخرف]

أى : أنهم تمنوا أن ينزل القرآن على أحد أصحاب النفوذ والسلطان.

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد لدينه بداية الإيمان الحقيقى.

أراد مؤمنين بهذا الدين لا يرجون ولا يطلبون إلا الجنة.. ولا يكون دخولهم فى الإسلام طمعاً فى مغنم دنيوى.. فهؤلاء المسلمون الأوائل هم الذين اختصهم الله سبحانه وتعالى بحمل الرسالة إلى الدنيا كلها.. ولو أنهم دخلوا الدين عن إيمان غير حقيقى.. لانحرفوا بالإسلام وتعاليمه من أجل الدنيا.. ولكن ربهم أراد لهم أن يكون إيمانهم ملء القلب لا تهزه الدنيا كلها.

ولو أن هذا الدين نزل على رجل من سادة مكة.. لدخل الناس الإسلام نفاقاً ورياء وطلباً للدنيا.. تماماً كما يلتف المنافقون حول الحاكم ذى النفوذ والسلطان لتحقيق منافعهم الشخصية.. فإن زال السلطان عنه انفضُّوا من حوله.

ولو أن الإسلام بدأ باجتذاب المنافقين والباحثين عن الدنيا.. لانتهى بمجرد زوال الدنيا عن صاحب الدعوة.. ولكن الإسلام لابد أن يبدأ بقلوب يملؤها نور الله.. يُعذَّب الواحد منهم فلا يترك دينه.. ويُقتل وهو يقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله.. ويغتصبون ماله ورزقه ويعذبونه ويرى أهوالاً كثيرة.. ولكنه لا يتزحزح عن إيمانه.. لذلك كان المؤمنون الأوائل لا يريدون إلا الجنة ، ولا يُؤثر فيهم العذاب.. ولا تؤثر فيهم أسباب الدنيا ؛ لأن إيمانهم أقوى من الدنيا كلها.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

العقيدة لا المال

ولذلك نجد مثلاً أن صُهَيباً الرومى عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة طلبوا منه أن يترك أمواله كلها فى مكة فلم يتردد.. وعندما علم رسول الله ﷺ بالقصة.. قال عليه الصلاة والسلام :

«ربح البيع.. ربح البيع»(١)

والإسلام جاء ليبنى الإنسان من الداخل بناء صلباً.. لماذا؟.. لأن الإنسان هو سيد هذا الكون ، فإذا أُحسن بناؤه ساد العالم.. وإذا أُسيء بناؤه لا تقوم له حضارة.. وهذا صحيح حتى يومنا هذا.. وسيبقى صحيحاً إلى يوم القيامة.. فإذا نظرنا فى العصر الحديث إلى دولة كاليابان نجد أنها من أغنى دول العالم.. وأكثرها تقدُّماً فى الصناعة.. مع أنه لا توجد مواد خام فى اليابان يمكن أن تقوم عليها أية صناعة..

بينما هناك دول أخرى تملك كل مُقوِّمات الصناعة من مادة خام وموارد طبيعية.. ومع ذلك لم تقم فيها صناعة واحدة.. وهناك دول فيها من الأرض الزراعية.. ما يكفى لتطعم العالم كله.. ولكنها تعانى مجاعة وقحطاً ، وتستورد الطعام من الخارج.

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٥٧٥) من حديث سعيد بن المسيب ، وعزاه لابن سعد والحارث بن أبى أسامة فى مسنده وأبى نعيم فى الحلية وغيرهم.

إذن : فالمؤثر فى الحضارة الإنسانية هو الإنسان.. إنْ صلُحَ صلح كل شىء.. وإنْ فسد فسد كل شىء.. ومن هنا فإن الإسلام حرص على أن يبنى الإنسان المسلم البناء الإيمانى القوى الذى يجعله سيد هذه الأرض. ولذلك ما تمسك المسلمون بدينهم إلا زادوا رفْعة وتقدماً وحضارة.. وما ترك المسلمون دينهم إلا زادوا تخلفاً وضعفاً.

ومن هنا كانت أهمية بناء الإنسان المسلم فى الأيام الأولى للدعوة .. نموذجاً لذلك الإنسان الذى قهر الدنيا ، ولا تستطيع الدنيا أن تهزه .. لأنه لا يريد منها شيئاً .. ولذلك عندما ذهب خالد ابن الوليد إلى حرب الفرس قال : أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة.

هكذا كان المسلمون الأوائل.. أعينهم على الآخرة.. وكانوا حَمَلَة الدعوة إلى العالم كله ، فكانوا المثَل والقدوة التى دفعت الناس إلى الدخول فى الإسلام.. فالمبشِّر بالدين لابد أن يكون قدوة.. وإلا فإن أحداً لا يستمع إليه.. وهذا ينطبق على الدين وحده.. ولا ينطبق على علوم الدنيا كلها.. فالناس يأخذون العلم عن عالم كيمياء فاسق.. أو طبيب لا يلتزم بخلق كريم.. وأى عالم دنيوى يستهين بالقيم.. ولكنهم لا يأخذون دينهم إلا عن عالم يتمسك بمنهج الدين وبالسلوك الحسن .. وينصرفون عنه إذا كان فى سلوكه ما يشين.

واستمرتْ فترة الإيذاء سنوات .. حاول خلالها الكفار أن يقنعوا بنى عبد المطلب بأن يسلموا لهم رسول الله ﷺ . لكن

بنى عبد المطلب رفضوا ، وخاصة أبا طالب عم رسول الله ﷺ.. لقد رفض أن يتخلى عن ابن أخيه وتسليمه للكفار.

وهنا بدأ الكفار يفكرون فى طريقة أخرى.. هى أن يقاطعوا بنى عبدالمطلب حتى يُسلِّموا لهم رسول الله ويتخلوا عنه.. وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ورفض النجاشى تسليمهم لكفار قريش.. وانتشار الإسلام بين القبائل يملأ قلوبهم حقداً وناراً.

ولذلك اجتمعوا عند الكعبة ، وتعهدوا بأن يقاطعوا بنى عبدالمطلب.. وكتبوا كتاباً تعهدوا فيه ألا يتزوجوا منهم ولا يُزوِّجوهم.. ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم.. وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة.. وعندما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى أبى طالب ودخلوا معه فى شعبه.. وخرج عن بنى هاشم أبو لهب.

الحصار الاقتصادى لبنى هاشم

وقامت قريش بمحاصرة بنى هاشم.. ومنعوا عنهم الطعام وأحكموا الحصار عليهم.. حتى جاءت أطفالهم وأكلوا أوراق الشجر.. وفى ظل هذا الحصار الرهيب أخبر رسول الله ﷺ أن الله قد سلَّط الأرضة «السوس» على الصحيفة التى كتبتها قريش فأكلتها ولم يبق منها إلا كلمة «باسمك اللهم».. فسأله أبو طالب : من أخبرك بهذا ؟ فردَّ رسول الله ﷺ أنه وَحْى من السماء.

وذهب عبد المطلب إلى كفار قريش وأخبرهم بما أخبره به

رسول الله ﷺ.. فقالوا : إن كان هذا صحيحاً فسننهى الحصار.. وفتحوا باب الكعبة.. ودخلوا ليروا الصحيفة ، فوجدوا أن الأرضة قد أكلتها فيما عدا كلمة «باسمك اللهم».

وهكذا فشلت المرحلة الثالثة ، وهى حرب التجويع التى شنها الكفار على رسول الله ﷺ والمسلمين.. كما فشلت من قبل سياسة الإغراء بالمال وجاه الدنيا وسياسة التعذيب.. ولم يكن أمام كفار قريش إلا حَلٌّ واحد هو أن يتآمروا على قتل رسول الله ﷺ.. ويضعوا الخطة لذلك دون أن يتعرضوا لانتقام بنى هاشم.. وكانت المؤامرة التى تمت فى ليلة الهجرة.

وشاءت الأقدار أن تموت خديجة.. ويموت عبدالمطلب فى عام واحد سُمِّى عام الحزن.. وهكذا فقد رسول الله ﷺ الحماية التى كان يوفرها له عمه أبو طالب الذى رفض أن يتخلى عن رسول الله ﷺ ؛ لأنه ابن أخيه الذى توفى وتركه يتيماً.. وكان يعتبره كابنه.. وتوفيت خديجة الزوجة الحنون التى كانت تُسرِّى عن رسول الله ﷺ ، وبموتهما ـ فقد حماية الداخل بموت خديجة وحماية الخارج بموت عمه ولكنه لم يفقد حماية الذى ما ودعه وما قلاه وجعل آخرته خيراً له من أولاه .

فقد كان الرسول ﷺ كلما عاد إلى بيته يملؤه الهم والحزن ، مما يلاقيه من إيذاء واضطهاد كفار قريش وتعذيبهم للمسلمين.. كانت تُطيِّب خاطره.. وتذهب عنه الحزن ، وتظل تحدثه حتى تصفو نفسه ، ويصبح مستعداً ليوم جديد من الدعوة والجهاد.. وبموت خديجة وعبدالمطلب ازداد اضطهاد الكفار لرسول الله ﷺ وللمؤمنين.

ويضـيق الرسـول الـكريم بإيذاء كـفـار قـريش.. فـقـد كـان أبو طالب يحميه من أذى الكفار.. وكان يخرج معه دائماً ليمنع عنه الأذى.

إلى الطـائف

وضاق رسـول الله ﷺ بما يحدث له في مكة ، فقـرر أن يخرج بدعوته من مكة علّه يجد النصيـر ، فذهب إلى الطائف ليدعو أهلها إلى الإسلام .. وكـان يعتـقد أنهم سيـستـجيبـون له .. ولكن أهل الطائف بدلاً من أن يستجيبوا له سلطوا عليه صبيانهم وسفهاءهم فآذوه وقـذفوه بالحـجارة حتى دَمِـيتْ قدماه الشـريفتـان.. ولجأ رسول الله ﷺ إلى بسـتـان وجلس بَعـد أن أخذ بأسـباب الأرض.. وبعد أن فـعل كل ما في طـاقته لـينشر دين الله ويؤدي رسـالته.. جلس بعـد أن تـخلت عنه أسـبـاب الأرض واتجــه إلى الله المنعم المسبِّب.. ورفع يديه الشريفتين إلى السماء.. وقال :

« اللهم إليك أشكو ضـعف قوتي ، وقلّة حـيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رَبُّ المستـَضـعفين ، وأنت ربي إلى مَنْ تَـكلني ؟ إلى بعـيد يتجـَّهمني ؟ أم إلى عدو ملَّكتـه أمري ؟ إنْ لم يـكُنْ بك غـضب عليَّ فـلا أبالي . ولـكن عـافيـتك أوسَعُ لي .. أعـوذ بنور وجـهـك الذي أشـرقتْ له الظلمـات وصلُح عليه أمـر الدنيـا والآخـرة من أن تُنزل بي غـضبك ، أو يحلّ عليَّ سـخطك ، لك العُـتْـبى حـتى تـرضَـى ، ولا حـول ولا قـوة إلا بالله الـعـلي العظيم »[1] .

(1) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٤٢٠) وعزاه لمحمد بن إسحاق من رواية محمد ابن كعب القرظي .

السماء لا تتخلى عن النبى ﷺ

دعاء فيه كل مُقوِّمات الإيمان واليقين.. لأن رسول الله ﷺ لا يخذله الله أبداً.. ولكنه وقد استنفد أسباب الأرض اتجه إلى السماء.. واهتزتْ أبواب السماء لرسول الله ﷺ.. وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلِّم رسوله أنه إذا كان قد لقى ما لقى من أهل الأرض ، فإن ذلك لا يعنى أن السماء قد تخلَّتْ عنه.

وإذا كان الله جَلَّ جلاله قد ترك رسول الله ﷺ للأسباب أولاً.. ليجتهد فيها حتى يكون أُسْوة لامته فى الأخذ بأسباب الأرض مع مَدَد السماء.. فإن الله أراد أن يُكرمه ويُريه من أسرار كونه ما لم يَرَهُ بشر.. رسول الله ﷺ لم يفقد فى يوم من الأيام نُصْرة الله له.. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يربى من أمة رسول الله ﷺ أولئك الذين سيحملون رسالته إلى الدنيا كلها.. وبقدر ما كانت مهمتهم عظيمة كان الإعداد عظيماً.. حتى إذا فُتحت لهم الأرض بكنوزها وزينتها وقصورها.. لا تستطيع أن تفتنهم عن منهج الله.. ولا يدخل حب الدنيا فى قلوبهم أبداً.. فإن حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان فى قلب واحد.

وهكذا كانت فترة الإعداد الإيمانى.. وعندما رفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء داعياً ربه.. كانت معجزة الإسراء والمعراج.

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾

[الإسراء]

الفصل
الخامس

وجاء مَدَدُ السماء ؟

رسول الله ﷺ بعد أن رفع يديه إلى السماء ودعا.. عاد مرة أخرى إلى مكة ليواصل جهاده ودعوته فى أقسى الظروف التى مرَّ بها المسلمون الأوائل.. ولكن السماء كانت تعد إعداداً آخر لرسول الله ﷺ.

الله سبحانه وتعالى أراد أن يُرى رسوله الكريم ما لم يَرَهُ بشر من قبل.. أراد أن يعرف الرسول أسرار عالم الملكوت الأعلى.. وهناك عالم الملك.. وعالم الملكوت.. عالم الملك نشترك فيه جميعاً وهو ظاهر الحياة الدنيا.. أما عالم الملكوت فهو باب يفتحه الله سبحانه وتعالى لمن أراد من خَلْقه.. ويرى كل منهم ما شاء حسب قدره عند الله.. وقدْر رسول الله ﷺ كان فوق البشر جميعاً.

ولذلك أراه ما لم يُر أحداً من خلقه.. وكان هذا تثبيتاً ، وكان هذا تكريماً .. وكان هذا تعظيماً للرسول الكريم.

كانت معجزة الإسراء والمعراج معجزة كبرى خرقت نواميس الكون.. فالله خلق كونه ليعمل بالأسباب والمسبِّبات ، وهو خالق الأسباب وخالق المسبِّبات.. وكان من الممكن أن ينصر الله دينه بدون أسباب البشر.. كما حمى بيته من جيش أبرهة.. بدون أسباب البشر.

ولكن الرسالة التى تمتد إلى يوم القيامة لا بد لها من رجال.. وهؤلاء بدون الوحى لابد أن يلجأوا لأسباب البشر.. لأنهم لو خرجوا عن هذه الأسباب ما كان هناك جهاد.. وما كان هناك ابتلاء.. وما كان هناك تمحيص.. وما كان هناك استحقاق لنعيم الجنة فى الآخرة.

فما دام الدين سيمضى بقوة السماء ، فما هو دور البشر؟ وما هو حسابهم فى الآخرة؟.. إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

ورسول الله ﷺ قدوة لأمته.. ولو أنه انتصر بلا أسباب لقال المسلمون وقد أمروا بأن يتبعوا منهج الرسول.. لا طاقة لنا بهذا المنهج.. فقد كان كل شىء فيه بلا أسباب.. لذلك كما شاء الله أن يكون الرسول بشراً ليكون قدوة.. كذلك شاء أن ينتصر دينه ظاهراً بالأسباب.. حتى لا يترك المسلمون أسباب الدنيا لغيرهم.

التوكل والتواكل

وهنا نقف وقفة.. ما معنى التوكل على الله ؟.. وما الفرق بينه وبين التواكل؟ الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتوكل عليه.. ولكن التوكل عمل القلب وليس عمل الجوار. لذلك فإن علينا أن نأخذ بالأسباب ثم نلجأ إلى الله فيما هو فوق قدرة البشر.. فالطالب لابد أن يذاكر حتى ينجح.. وليس من الإسلام أن يدخل الامتحان بدون أن يذاكر ثم يقول إنه متوكل على الله. والإنسان مُطَالب بأن يعمل ويبذل أقصى جهده ، ثم بعد ذلك يأتى مَدَد السماء.. فكم من إنسان سعى سَعْياً حثيثاً إلى الرزق ، ولم يُصبه منه شىء.. وإنسان آخر سعى نفس السعى وجاءه رزق وفير.

كُلٌّ أخذ بالأسباب.. ولكن النتيجة مختلفة ؛ لأن مدد السماء كان مع واحد ، ولم يكن مع الآخر.. وكل الرسل أخذوا بأسباب الأرض فى دعوتهم ؛ لأنهم قدوة سيتبعهم المؤمنون.. فكان لابد من

بشرية المتصرف لتستقيم أمور الدين.. ولكن المعجزات جاءت من الله لتثبيت الرسول وتثبيت المؤمنين به فى قمة الأزمات الدنيوية.. فالرسول لأنه مُرْسَل من الله ، لابُدّ أن تكون له معجزات تثبت صدْق بلاغه عن الله.. والرسول لأنه مبلغ منهج حق.. نزل حين عَمَّ الفَساد الأرض يواجه بموجة عاتية من المقاومة.. موجة شرسة من أولئك الذين يملكون القوة والنفوذ والسلطان.

وإذا قرأت قَوْل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

لعرفتَ الحكمة من الأخذ بالأسباب فى الدنيا ، وأنها الطريق إلى الجنة أو النار.

الحكمة من الإسراء والمعراج

وإذا أردنا أن نتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج.. فإنَّا نبدأ بالآية الكريمة التى جاءت فى بدء سورة الإسراء.. يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ [الإسراء]

هذا النصُّ القرآنى بدأه الله سبحانه وتعالى بقوله﴿ سُبْحَانَ ﴾.. ومعنى كلمة سبحان أنها تنزيه للحَدَث من أىِّ شبهة مقارنة لأية قوة بشرية.

والله سبحانه وتعالى مُنزَّه فى ذاته.. وفى صفاته وأفعاله.. عن قوانين الدنيا كلها.. ولذلك فإن أى فعل يصدر من الله وتقف فيه العقول نقول (سبحان الله).. أى أنه فوق قوانين البشرية كلها، لذلك فإن أول ما يصل إلى الأذن فى سورة الإسراء هو قول الحق : ﴿ سُبْحَانَ ﴾. أى: أن هذا الفعل لا يخضع لقوانين البشر.. ولكنه يخضع لقدرة الله سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ .. ① ﴾ [الإسراء]

والله جَلَّ جلاله هو الذى أسرى.. ومحمد ﷺ هو الذى أُسرى به.. ثم بعد ذلك يقول الحق : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء] وهو رسول الله.

ثم تأتى بعد ذلك بداية الإسراء ونهايته فى قوله تعالى: ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء] ثم السبب فى الإسراء فى قوله سبحانه ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا .. ① ﴾ [الإسراء] أى: أن الله أراد أن يُرى رسوله ﷺ من آياته.. وآيات الله أكبر من أن تكون لها بداية أو نهاية .

لا وجه للمقارنة

إذا جئنا للفعل وهو الإسراء.. فلابد أن ننسبه إلى فاعله ، وهو الله سبحانه وتعالى.. فالفعل لم يقع من رسول الله ﷺ وإنما حدث من الله.. ولم يَقُلْ رسول الله : أنا سريت حتى ننسب الفعل إلى قانون بشرية الرسول عليه الصلاة والسلام.. كما قال الكفار : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة.. لقد كانت الرحلة من مكة إلى بيت المقدس تستغرق شهرين فى ذلك الوقت.

إذن : وجه المقارنة هنا معدوم.. ومقارنة الكفار بالإسراء بالنسبة لقوتهم البشرية هي مقارنة تدل على الغباء.. لأن محمداً ﷺ لم يقل : إني سريت ولكن قال أسرى بي.. إذن : فرسول الله عليه الصلاة والسلام محمول على نطاق قوة أخرى ، بلا حدود ولا قيود.

وإذا أردنا لذلك مثلاً يُقرِّب ذلك من الأذهان.. نقول : إذا قلت لقد صعدتُ بابني الرضيع في قمة أعلى جبل في العالم.. لا يمكن أن يقول أحد: كيف يصعد طفل رضيع قمة أعلى جبل في العالم.. وإنما قد يتساءلون كيف صعدت أنا .. لأن الصعود ليس منسوباً لقوة الرضيع.. وإنما هو منسوب لي.

والزمن دائماً يُنسب إلى قوة الفاعل.. فإذا سافرت ماشياً نسب الزمن إلى قوة قدميك.. فإذا كنتَ في سيارة يكون الزمن أقلَّ ؛ لأن السيارة أقوى من القدمين وأسرع.. وإذا كنت في صاروخ كان الزمن أقل لأن قوة الصاروخ أكبر.. فإذا نسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى فلا زمن لأنه الله.

رحلة بالروح والجسد

قد يأتي إنسان ويقول.. إذا كان الفعل من الله بلا زمن.. فلماذا استغرق الإسراء ليلة ؟

نقول : هناك فَرْق بين حَدَث الإسراء في ذاته.. وبين مَرَاء تعرض لها رسول الله ﷺ.. فالرسول حين تعرض لمراء فيّ الإسراء.. فهذه هي التي احتاجت للزمن لأنه رآها ببشريته.. أما الرحلة ذاتها فلم تحتَجْ إلى زمن.

ولكن الأسئلة لا تنتهى حتى فى عصرنا الحديث الذى أعطى فيه الله سبحانه وتعالى عباده من العلم البشرى.. ومكّنهم من قوانين الأرض.. فاخترعوا وسائل للمواصلات تختصر الزمن.

والسؤال هنا : كم من الزمن تستغرق رحلة الصاروخ من مكة إلى بيت المقدس؟.. دقائق أو أقل.. وإذا كان هذا هو الذى وصلت إليه قدرات البشر بما كشف الله لهم من علمه.. فكيف بقدرات الله؟!.

إذن : فالحديث عن الزمن لا محلَّ له. ولكن بعض الناس يتساءلون : هل تَمَّ الإسراء بالروح فقط؟.. أم بالروح والجسد؟.. نقول : لو أنه تم كرؤيا منام لما قال الكفار : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً.. لأن المنام أو الرؤيا فى النوم لا تناقش مع مَنْ رأى.. فإذا قال لك إنسان: إننى رأيت فى منامى أننى ذهبت إلى لندن ثم إلى أمريكا ، ثم إلى استراليا ، فإنك لا تناقشه.

ولذلك لو كان الإسراء مناماً.. ما ناقش أحد رسول الله ﷺ. ولكنهم عرفوا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يتحدث عن رحلة تمت فى اليقظة وليست فى المنام.. وتمتْ بالجسد والروح معاً.. ولكن العقول التى تبحث فى القرآن لتوجد تضارباً وهمياً بين ما قاله رسول الله ﷺ تدعى أن القرآن نفسه قد قال إنها رؤيا منامية.. وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

وكلمة الرؤيا بالألف لا تأتى إلا للمنام.. لأن الرؤية البصرية

قالوا فيها رؤية.. ونحن نقول : إذا كانت رؤيا منام فكيف تكون فتنة للناس؟ بعضهم يُصدِّق وبعضهم يُكذِّب.. إن المنام لا يناقشه أحد تكذيباً أو تصديقاً. وإذا عُدْنا للغة العربية.. نجد أن كلمة رؤيا وردت للرؤية البصرية.. فالراعي النميري أعرابي ، وهو شاعر عربي قال :

فَكَبَّرْ للرُّؤْيَا وهَشَّ فُؤَادُه ... وَبَشَّر نفساً كَانِ قَبْلُ يَلُومهاَ

والمتنبي يقول : ورؤياك في العينين أحلى من الغمض.

إذن : فالرؤيا في اللغة تُستخدم بمعنى أنها بالبصر ، وبمعنى أنها بالمنام .. ولكن استخدامها بالنسبة للبصر يتم عادة في الأشياء الغريبة التي رأيتها بعينيك وأنت تتعجب منها ، وكأنها لا يمكن أنْ تُدرك إلا في الأحلام.

وما دامت رؤيا رسول الله ﷺ قد جُعلت فتنة.. فلا يمكن أن تكون مناماً.. إذن : فرسول الله ﷺ أُسرَى به بالجسد والروح معاً.. نلاحظ في الآية الكريمة :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ .. ① ﴾ [الإسراء]

ولم يَقُلْ برسوله أو بمحمد.. بل أتى بصفة العبودية لله سبحانه وتعالى.. لأن كل الديانات جاءت لتصحح عبوديتنا لله سبحانه وتعالى.. ولابد أن يكون الرسول قدوة في العبودية.. وهذه الكلمة جاءت أيضاً حتى يمكن الرد على الذين يقولون إن رسول الله ﷺ أسرى به روحاً أو مناماً.. فإن كلمة العبد لا تطلق إلا على الروح والجسد معاً.

وبداية الإسراء ونهايته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،

أى : أن الإســـراء بدأ من أول بـيت وُضِع للنـاس فى الأرض إلى المسجد الأقصى ، وهو مشهد مقدس من مشاهد الله فى الأرض.

وهنا يبرز اعتـراض آخر : كيف يقول الحق سبـحانه وتعالى : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإســراء] مع أن المسجـد هو للمسلمين فقط.. ولم يكن المسلمون قد دخلوا بيت المقدس بعد؟.

نقول : إن كلمـة مسجد تطلق على مكان السـجود.. فكل مكان يسجد فيه الإنسان لله الواحد الاحد هو مسجد.. والسجود لم يأْت مع الإسلام.. وإنما كـان فى كل الأديان.. فكل مكان يُسجد فـيه لله سبـحانـه وتعالى يكون مـسجـداً.. وبيت المقدس له قـدسيـة مع موسى وعيسى عليهما السلام.

ورسـول الله ﷺ لم يُبعث لقومه فقط.. ولكنه بُعث للناس كافة.. وإسراؤه إلـى بيت المقدس كـانه ادخل بيت المقدسَ فى مـقدســات دينيـة.. وهذا يوضح أن الإسلام مُـهَيْـمن على كل المقدسـات فى الأرض.. ورسـول الله ﷺ يقول :

« لا تُشَـدُّ الرِّحـال إلا إلى ثلاث : المســجـد الحرام، والمســجـد الأقصى، ومسجدى هذا»[1].

وصـف بيت المقـدس

حـين روى رسـول الله ﷺ قـصـــة الإسـراء.. أراد الكفـار أن يحـرجوه فـقالوا : صفْ لنا المـسجـد الأقصى.. وهم يعلمـون أن الرسول عليـه الصلاةَ والسلام لم يذهب مـن قبل إلى هذا المكان.. فوصفه لهم وصفاً دقيقاً.. ولقد وقعتْ أحداث فى الطريق بين مكة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٩٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

والمسجد الأقصى.. رواها لهم رسول الله ﷺ.. مثل القافلة التى قال عليه الصلاة والسلام : إن أحد جمالها قد ضلَّ ، وإنها ستصل وقت كذا.

والقرآن الكريم حين تعرَّض للإسراء.. تعرَّض له بمقدمات مادية أرضية كالأحداث التى رآها رسول الله ﷺ فى الطريق.. ووصفه المسجد الأقصى إلى غير ذلك.. وكانت هذه الأشياء المادية مقدمة للمعراج.. حتى إذا تأكد الناس أن الله سبحانه وتعالى قد خرق لرسوله قانون المسافة فيما نعلم.. فإنه قادر على أن يخرق له قانون العلو فيما لا نعلم.. عندما عرج برسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى.

والقرآن حين تعرَّض لحديث الإسراء تعرَّض له صراحةً.. وعندما تحدث عن المعراج تعرض له كما يقولون التزاماً.. والله سبحانه وتعالى لم يَقُلْ سبحان الذى عرج بعبده من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى.. وإنما قال جل جلاله :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ [النجم]

وذكْر سدرة المنتهى والوقوف عندها ورؤية آيات ربه الكبرى

يجب أن نعلم منها أن رسول الله ﷺ صعد إلى سدرة المنتهى.. ولكن لماذا لم يأت بها الله سبحانه وتعالى نصاً؟.. نقول : إن هذا اختبار لليقين الإيماني في النفس البشرية.. فما دُمْتَ مؤمناً بأن رسول الله ﷺ قد خرق له قانون المسافة.. فإنك تؤمن أنه خُرقت له قوانين الصعود إلى السماء.

ولماذا نريد أن نقيس معجزة حدثت لرسول الله ﷺ بعقولنا.. بينما كل معجزات الأنبياء كانت فوق قدرات العقول.. فإلقاء إبراهيم في النار ثم تكون النار بَرْداً وسلاماً عليه معجزة لا يستطيع أن يدركها العقل ، لأن خاصية النار هي الإحراق.. وانشقاق البحر لموسى عليه السلام معجزة لا يمكن أن يدركها العقل ، لأن خاصية الماء الاستطراق.. وإحياء الموتى وشفاء الناس بمجرد اللمس معجزة لعيسى عليه السلام لا تخضع لقوانين العقل.

فلماذا كل هذه المعجزات ننسبها إلى قدرة الله سبحانه وتعالى.. ثم نأتي إلى معجزة الإسراء والمعراج ونناقشها عقلاً.. ومعجزات الله كلها فوق قدرة العقل.. ولذلك فإن الذي يُكذِّب بالإسراء يكون كافراً ؛ لأنه صادم النصَّ القرآني.. والذي يُكذِّب بالمعراج يكون كافراً فاسقاً لأن المعراج بدلالة الالتزام.

الكفار تأكدوا من صدق الرسول ﷺ

وما دام محمد ﷺ محمولاً بقانون الحق سبحانه وتعالى.. فإن كل شيء يحدث مُصدق لأنه بقدرة الله.. فكأن الإسراء جاء آية أرضية ؛ لأن البشر يعلمون بيت المقدس والمسجد الأقصى ومنهم مَنْ ذهب إلى هناك.. ومنهم مَنْ يعرف الطريق .. وقد أخبرهم

رسول الله ﷺ بالقافلة التى كانت فى الطريق ، وانتظروا القافلة ، وتأكدوا من صدق كلامه.

إذن : فقد قام الدليل الأرضى على صحة الإسراء.. وتأكد من أراد التأكد.. وكان ذلك مقدمة للتصديق بأن الله سبحانه وتعالى الذى خرق لرسول الله ﷺ قانون المسافة والزمن فى الإسراء.. خرق له قانون السموات السبع فى المعراج.. لأنه لا يمكن لأحد أن نقيم له الدليل الأرضى على معجزة المعراج.. لأن أحداً من البشر لم يصعد إلى السموات السبع.

على أننا يجب أن نلاحظ أن القرآن الكريم قال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

فكأن الفعل هنا إراءة.. ما هى الإراءة؟.. هى أن تجعل مَنْ لا يرى يرى.. وأبسط مَثَل يمكن أن يُضرب لهذه المسألة هو أن الإنسان الضعيف النظر عندما يذهب إلى طبيب العيون يشكو قصر نظره، وأنه لا يرى الأشياء التى تبعد عنه عدة أمتار.. يضع الطبيب على عينيه نظارة فيرى ما لم يكن يراه.. وعدم الرؤية هنا ليس دليلاً على عدم وجود شىء.. ولكنه دليل على عدم إدراك هذا الشىء.

فالميكروبات مثلاً موجودة فى الكون تؤدى مهمتها منذ خلق الله الأرض.. ولكننا لم ندرك وجودها إلا حديثاً.. إذن : فالإراءة إما أن تكون تغيير قانون الرائى.. وإما بإعطائه شيئاً ليرى بذاته.. والإسراء كان على الأرض بقانون البشرية لمحمد ﷺ.. وقانون الإبصار خاضع للضوء.

فإذا كانت هناك آيات من غيب الله فى الأرض .. فلابد أن يحدث لرسول الله ﷺ ما يجعله يرى.. لأنه بطبيعته البشرية لا يرى هذه الأشياء.

ولكن حينما ينتقل رسول الله ﷺ إلى الملأ الأعلى.. ويلتقى بالأنبياء الذين ماتوا قبله.. ويلتقى بالملائكة ويتحدث معهم .. فلابد أن الحق سبحانه وتعالى قد غيَّر من بشرية رسول الله ﷺ إلى الملائكية.

ولذلك عندما صعد إلى السماء قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم]

ولم يَقُلْ أريناه.. فكأن رسول الله ﷺ قد أخذ وضعاً آخر فى السماء فأصبح بذاته يرى.. ولذلك فإن الملائكية أصبحت هى المسيطرة على الرسول الكريم.. فكأن المعجزة تمت على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كان بشراً وجبريل عليه السلام يعرض عليه الأشياء.. فيقول : ما هذا يا جبريل؟

فيقول كذا وكذا.

والمرحلة الثانية : حين صعد إلى السماء.. كانت له ذاتية مختلفة فاهمة ، بحيث أصبح يرى بنفسه ويرى الملائكة ويتكلم معهم ويخاطبهم.

والمرحلة الثالثة : أن رسول الله ﷺ ارتقى ليصبح أعلى من أقرب الملائكة إلى الله وهو جبريل عليه السلام.. لأنه حين طلب

من جبريل أن يتقدمه إلى سدرة المنتهى قال جبريل : هنا مكانى.. لو تقدمت لاحترقتُ ، وأنت لو تقدمت لاخترقتْ.

إذن : فقد وصل رسول الله ﷺ إلى درجة لا تتحملها ملائكية جبريل عليه السلام.. فأصبح هو وحده الذى يستطيع أن يتقدم ويخترق.. أما ملائكية جبريل عليه السلام فلم تَكُنْ تتحمل التقدم ولا تحتمله ؛ لأنه كان سيحترق.

رؤية الآية الكبرى

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ [النجم]

إخبار من الحق وليس إخباراً من محمد عليه الصلاة والسلام.. ومعناه أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه.. ومادام قد رأى الآية الكبرى فلابد أنه رأى قبلها آيات وآيات.. ومعنى أنه رأى من آيات ربه الكبرى.. أنه رأى الكبرى من آيات ربه.. فكأن الكبرى هى المفعول وليست وصف الآيات.. فكأن السياق يقول :

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ .. (١٨) ﴾ [النجم]

ماذا رأى ؟.. رأى الكبرى.. أى الآية الكبرى.. ولقد كان جبريل عليه السلام معه فى الأرض.. ومعه فى السماء.. ولكن الآية الكبرى التى لم يقدر عليها جبريل ولا أحد من الملائكة.. قد انفرد برؤيتها رسول الله ﷺ.

ورسول الله ﷺ رأى فى المعراج أشياء كثيرة.. أول شىء يعرضه لنا رسول الله عليه الصلاة والسلام مسألة الفطرة.. فقد عُرض على رسول الله ﷺ كأس من اللبن.. وكأس من الخمر..

فاختار عليه الصلاة والسلام كأس اللبن.. فقال له جبريل : هُديتَ إلى الفطرة.

ما معنى هُديتَ إلى الفطرة ؟.. الفطرة بطبيعتها نقية.. لأن اللبن الذى نشربه من أمهاتنا واللبن الذى نشربه من البقر والجاموس وغيرهما .. نشربه كما خلقه الله.. أى لا صنعة للإنسان فيه.

والإنسان حتى الآن وإلى يوم القيامة لن يستطيع أن يصنع اللبن لأنه معجزة من معجزات الله.. واللبن الصناعى الذى يتحدثون عنه إنما هو لبن طبيعى ، ولكن تم تبخير الماء فيه ليبقى فترة طويلة على شكل مسحوق.. محتفظاً بكل خواص اللبن الطبيعى.. وقد يضيفون إليه أشياء كالفيتامينات وغيرها.. ولكن يبقى مصدره اللبن الطبيعى.. ذلك أنه من المستحيل تصنيع اللبن.. أما الخمر فقد أُجريتْ عليها تغييرات ودخلت فيها صناعة البشر.. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا .. (٦٧) ﴾ [النحل]

أى يصنعون منها ما يسكر.. ويقول الحق : ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا .. (٦٧) ﴾ [النحل] أى : مَنْ يأكل هذه الأشياء على طبيعتها فهذا رزق حسن.. ومن يصنع منها خمراً فإنه رزق غير حسن.

ونحن نأخذ نعم الله التى يعطيها لنا بالفطرة حسنة ونفسدها.. بأن نضعها فى برميل حتى تتعفن وتتخمر ، وتخرج عن طبيعتها وفطرتها لتصبح رزقاً غير حسن.. فكأننا أخرجنا الشىء عن طبيعته وعن فطرته فأذهبنا حُسْنه.

والخمر تستر العقل.. والعقل هو مناط التكليف من الله سبحانه

وتعالى.. والمجنـون لا يكلفه الله.. فكأن الخمـر تعطل آلة الاختيـار بين البديلات.. وفى الاختيار لابد أن يكون العقل موجوداً وسليماً. حتى تستطيع أن تميز بين الخـير والشر.. فكأن الإنسان يأتى إلى مناط التكليف من الله سبحانه وتعالى ليفـسده بالخمر.. فكأنه عمد إلى النعـمة الكبـرى التى تقوم بتكـليف التنفيـذ من الله ليعطلـها.. وكأنما جـبريل أراد أن يقـول : إن الفطرة بطبيـعتهـا سليمـة فلا تفسدوها بتصرفاتكم.

مشاهد من الثواب والعقاب

وبعد ذلك روى رسول الله ﷺ مشهداً آخر. رأى قوماً يزرعون ويحـصدون فى نفس الوقت.. فـقال لجـبريل : مَنْ هؤلاء؟.. قـال جبريل : المجاهدون فى سبيل الله سبحانه وتعالى.. لأن الجهاد فى سبيل الله هو الوسيلة الناقلة لهدى الله سبحانه وتعالى إلى خَلْقه.. فـلابد لهؤلاء المجـاهدين الذين يجـودون بأموالهم وأرواحــهم أن يعطيهم الله من الجزاء أضعاف أضعاف ما يقدمونه.

أى : يعطيهم جزاء يناسب قدرته سـبحانه وتعالى فى العطاء.. ويحصدون ثمرات ما عملوا مـرات ومرات.. وإذا كانت حبة القمح فى الأرض تعطى مـئـات من حـبـوب القـمح.. إذا كـان هو عطاء مـخلوق من مـخلوقـات الله وهى الأرض.. فكـيف يكون عطاء الله سبحانه وتعالى ؟

ثم يروى لنا رسول الله ﷺ.. أنه رأى عجوزاً عليـها كل زينة.. فسأل رسول الله ﷺ : ما هذا يا جـبريل؟.. قال : إنها الدنيا التى حفَّت بالـشهوات لتـخفى قبـحها.. وإذا كـانت الدنيا عـجوزاً فمعنى ذلك أنه لم يبق من عمرها الكثير.

ولذلك قال رسـول الله ﷺ : «بعثت أنا والسـاعة كـهاتين»[1].. وأشار بإصبعيه.. والإنسـان فى الدنيا عمره محدود.. ولذلك يجب أن نتنبه إلى هذه الحقـيقة.. وهى أنه لا علاقة لـنا بالدنيا إلا بقدر حياتنا فيها.

ورأى رسول الله ﷺ أناساً والمقص يقصُّ شفاههم وألسنتهم.

قال : مَنْ هؤلاء يا جبـريل؟.. قال جبريل : خطبـاء الفتنة الذين يقولون مـا لا يفعلون.. يقولون كلاماً يسمعه الناس ، ويخـالفون بفعلهم ما يقولونه.. فـتكون النتيجة أن ينقلب الناس على منهج الله لأن الدين قدوة.. فـإذا كان هناك كلام يُقَـال وفعل مخـالف يفعله الدعاة إلى الله انهـدمت قضيـة الدين.. ولذلك يقول الحق سبـحانه وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

ثم يروى رسول الله ﷺ أنه رأى قـوماً يسبحـون فى بحر من دم ويلقـفون الحجـارة بأفواههم.. فـسأل عنهم جـبريل.. فـقال : هؤلاء أكلة الربا.. والدم حـين يكـون فى الجسـد يكون نافـعـاً .. وحـين يخـرج من الجسـد يكون فـاسـداً ، فكأن هؤلاء هم الذين أخرجوا المال من وظيفته النافعـة فى الحياة ليفسدوه بالربا.. وقد استبدلوا بالغذاء النافع للإنسان لَقْم الحجر.

وهذا معنى الربا أن تتـخذ من المال وسيلة ليـزداد الفقير فـقراً

(١) متفق عليه : أخـرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٣) ومسلـم فى صحيحه (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد.

ويزداد الغنى غنى.. وبذلك تفسد وظيفة المال.. لأن المال خلقه الله فى الدنيا ليستخدم فى عمارة الأرض.. ولذلك يجب أن تستثمره لتفتح أبواب العمل للناس.. وأن تتصدق بجزء منه لتعين الفقير والمحتاج.. ولكن الربا بدلاً من أن يجعل الدم يجرى فى العروق، ليعطيها القدرة على العمل والإنتاج وعمارة الأرض يسلبها هذه القدرة.. وكأن المرابين يأكلون الحجارة لأن فى بطونهم النار.. والنار وقودها الحجارة.

انشغال الناس بشيئين

والناس فى الدنيا مشغولون بشيئين : المال يجمعونه وأعراض الناس يعتدون عليها.. إذن : فالمال والعرْض هما أساس الفساد فى الأرض.. ورسول الله ﷺ رأى مسألة المال فى أكلة الربا.. ثم رأى مسألة العرْض فى أكثر من صورة.. قوم لهم أظافر من نحاس يخدشون بها وجوههم.. فسأل عنهم جبريل.. فقال له جبريل : هم الذين يغتابون الناس.. ورآهم فى صورة أخرى.. أناس يتركون اللحم الطيب أمامهم ويأكلون اللحم النتن.. وسأل جبريل عنهم فقال جبريل : هؤلاء هم الزناة.. الرجل تكون عنده المرأة فى الحلال فيتركها ويذهب إلى المرأة فى الحرام.. والمرأة يكون عندها الرجل فى الحلال فتذهب إلى الرجل فى الحرام.

ورأى رسول الله ﷺ مشهداً آخر ثوراً عظيماً خرج من جُحْر ويحاول أن يدخل فيه فلا يستطيع.. وسأل رسول الله ﷺ جبريل.. فقال : هذا الرجل يقول الكلمة يعطى العهد ، ثم يحاول أن يرجع فيها فلا يستطيع.

ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً يحمل حملاً لا يقدر عليه.. ثم يمد يده إلى شيء آخر ليزيد حمله.. وقال جبريل : هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ويعجزون عن أدائها ، ومع ذلك يحبون أن يزيدوا ظهورهم حملاً بقبول أمانات جديدة.

وروى رسول الله ﷺ أنه رأى قوماً يرضخون رؤوسهم بالحجارة ، وكلما رُضِخَتْ عادت كما كانت.. أى : أنهم يضربون رؤوسهم بالحجارة فتتحطم ثم تُرد مرة أخرى فيضربونها.. وهكذا دون أن تفتر هذه العملية أو تنتهى.. فقال رسول الله ﷺ : مَنْ هؤلاء يا جبريل؟.. قال جبريل : هؤلاء هم الذين يتكاسلون عن الصلاة.. وهؤلاء يضربون رؤوسهم ؛ لأن رأس الإنسان هو الذى يُسوِّل له أن يتكاسل عن الصلاة.

وقد يُقال : إن الصلاة لم تَكُنْ قد فُرضت بعد.. فكل هذه المشاهد حدثت ورسول الله ﷺ فى طريقه إلى سدرة المنتهى.. نقول : إن الصلاة قد فُرضت مع كل رسول ، وعلى أتباع كل رسول .

والله سبحانه وتعالى يقول لإبراهيم وهو يقيم القواعد من البيت :

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾
[الحج]

إذن : فهناك رُكَّع ، وهناك ساجدون ، وإبراهيم عليه السلام حين يدعو ربه بعد أن أخذ هاجر وابنهما إسماعيل إلى مكان البيت يقول :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فكأنه كانت هناك صلاة.. والله يقول لمريم عليها السلام :

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾

[آل عمران]

فكأن هناك ركوعاً وسجوداً وصلاة.. ولكنها ليست كالصلاة الإسلامية.. فالصلاة في الإسلام جمعت مَيْزات كل صلوات الرسل.. وصلوات الرسل كانت في بعض الأزمنة ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخره.. ولم يفرض على أتباع رسول سابق عدد الصلوات التي فرضت على أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

كيف صلى النبي بالرسل عليهم الصلاة والسلام؟

بقي سؤال واحد سنتحدث عنه قبل أن نختم الحديث عن الإسراء والمعراج.. رسول الله ﷺ قبل أن يبدأ المعراج صلى إماماً بالرسل السابقين.. فكيف يحدث ذلك وهو حي وهم أموات؟

نقول : وماذا في ذلك ؟.. إن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء.. والله الذي جعل عيسى بن مريم يُحيي الموتى بإذنه.. ألا يقدر على أن يعيد الحياة لرسله ليصلي بهم رسول الله ﷺ إماماً.. كيف يعطي الحق سبحانه لعبد من عباده القدرة على إحياء الموتى بإذنه.. ولا يحتفظ لنفسه بهذا الحق متى شاء وكيف شاء.

عندما روى رسول الله ﷺ ما حدث له في الإسراء والمعراج صدَّقه البعض وكذَّبه البعض.. وعندما ذهب عدد من الناس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأبلغوه بما قاله رسول الله ﷺ..

قال : أو قـال هذا؟.. قالوا : نعم.. قـال أبو بكر : إذن فقـد صدق.. فلما اعـترض عليه عـدد من الحاضرين.. قـال : أنصدقه فى خـبر السماء، ونُكذِّبه فميا يقول؟

ذلك أن الوحى كـان ينزل على رسـول الله ﷺ ، ولا يراه أحـد ، ولا يسـمعـه أحـد إلا رسول الله عليـه الصـلاة والسلام.. وكـان الرسـول يُبلِّغ المؤمنين بمنهج السـماء ومـا نزل من القرآن.. فـإذا كانوا يُصدِّقونه فـيما يُبلِّغهم به عن الله.. فكيف لا يُصدِّقـونه فيما رواه لهم عَمَّا رأى؟

وهكذا كانـت معجـزة الإسراء والمعـراج معجـزة كبـرى.. عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ليـواصل دعوته.. وقد كـرمه الله سبـحانه وتعالى فى ملكوته وفى سمائه بما لم يكرم به رسولاً غيره.

وبدأت الدعــوة تنتـشـر.. ويزداد عـدد المسلمـيـن.. وتَقْـوَى شوكتهم.. ولم تقتصر دعوة رسول الله ﷺ على أهل مكة.. بل كان فى موسم الحج يـلتقى مع وفود القـبائل ويدعـوهم إلى الإسلام ويتحدث مـعهم.. وأحسَّتْ قريش بأن الخطر يتـهددها.. ليس فقط فى مكة ، ولكن فى الجزيرة العربية كلها.

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾

[هود]

الفصل السادس

القرآن والإعجاز الأبدى

بدأت دعوة رسول الله ﷺ تنتشر.. وبدأ القرآن الكريم كمعجزة يأخذ القلوب والنفوس.. ويحمل منهج الحق إلى الناس.. وكل قلب كان يسمع القرآن كان يؤخذ به.. لقد نزل القرآن الكريم والدنيا تخضع للشر.. ينتفع بالشر قلة قوية وتعانى منه كثرة ضعيفة مغلوبة على أمرها.. كانت هذه هى صفات المجتمع الذى نزل فيه القرآن ليبدله ويغيره.

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن تنهار قوة الشر برسالة محمد ﷺ.. أما أصحاب الخير الضعفاء فكانوا يؤمنون بمنهج الله.. لأنه هو الطريق الذى يُخلِّصهم من شَرِّ الأقوياء صناديد قريش وزعمائها.. ولذلك بدأت المعركة بين الخير والشر.. عذاباً وتعذيباً واضطهاداً للمؤمنين.. وتحمل من تلك القلة المؤمنة التى كانت أول مَنْ آمن برسالة السماء.

والمعركة حين تكون بين الحق والباطل فإنها لا تستغرق وقتاً طويلاً.. فما من معركة قامت فى الدنيا بين حق وباطل إلا انتصر فيها الحق.. ولكن المعارك التى تطول بلا نهاية.. هى التى تقوم بين باطل وباطل.. والله سبحانه وتعالى ينصر الحق على الباطل.. ولكن إذا قامت معركة بين باطل وباطل، فإن الله جَلَّ جلاله يتركهم لأسباب الدنيا.. كُلٌّ حسب أسبابه.

رسالة الحق

رسول الله ﷺ جاء برسالة الحق.. ولذلك كان لابد أن ينتصر.. وما دام الرسول عليه الصلاة والسلام قد جاء بآخر بلاغ عن

الله.. فلابد أن يكون هذا البلاغ شـاملاً لكل معانى الخيـر فى حياة البشر.. بحيث لا يترك أىَّ معنى من هذه المعانى إلا وقد غطَّاها بما يملؤها بالخير.

ومـا دام رسول الله ﷺ هو آخـر مُـبلِّغ عن الحق جل جـلاله.. فلابد أن تمتد المعجزة فى رسـالته إلى يوم القيامة.. ولذلك لم يَأْتِ القرآن بمعجزة لغوية فقط ؛ لأن الإعـجاز اللغوى اختص به العربَ الذين برعوا فى اللغة.. ولكنه جاء يحمل إعجازاً للكون كله.

ولقد تحدى القرآن الكريم العرب فى لغتهم وبلاغتهم.. التحدى بالنسبـة لله سبـحانه وتعالـى لابد أن يكون من جنس ما نبغ فـيه القوم الذين تنزل فـيهم الرسالة. فـموسى عليه السلام نبغ قـومه فى السـحر.. وكـان السحـرة فى عهـد فرعـون على علم ومكانة بالنسبة لقوانين السحر.. ولذلك جاء موسى عليه السلام ليتحداهم فيما نبغوا فيه.. وكانت معجزة موسى من جنس ما نبغ فيه قومه.

وعيسـى عليه السلام أُرسل إلى قوم نبـغوا فى الطب.. ولذلك كانت مـعجـزة فى إبراء الأكمَـه والأبرص ، وغيـر ذلك من جنس ما نبغ القوم فيه.

ومحمد عليه الصلاة والسلام بُعث فى قوم نبغوا فى اللغة وفَنِّ الكلام.. ولذلك كـان لابد أن ياتى القرآن مُـعْجِـزاً لهم من الناحـية اللغوية.. ولكن القرآن هو الكتاب الخاتم نزل على الرسول الخاتم.. فكان لابد أن تكون له أكـثر من مـعـجزة.. ولذلك فـقد تحـدى به العرب وتحدى غـير العرب.. وكشف حُجُب الغـيب ، واشتمل على أسرار الكون.. فـالله سبـحانه وتعالى هو خـالق الكون.. وهو جل جلاله الذى يعطى العلم لخلقه.

ولذلك فهو سبحانه وتعالى عالم بما سيحدث فى الكون .. وبما سيكشف من أسرار هذا الكون لخلقه.. ولذلك وضع فى القرآن الكريم معجزة لكل عصر ، بحيث تكون المعجزة مصاحبة لمنهج القرآن حتى آخر عمر الدنيا.

وشاءت إرادة الحق أن ينزل هذا القرآن على رسول كريم أُمى لا يعرف الكتابة ولا القراءة.. حتى لا يدعى أحد أن الرسول الكريم قد أخذ رسالته من مُسَاو له.. ولم تؤثر فيه ﷺ ثقافة شرق أو ثقافة غرب.. وتشاء حكمةُ الحق سبحانه وتعالى ألا ينزل القرآن الكريم فى أمة لها حضارة فى ذلك العصر كالروم أو الفرس.. حتى لا يُقال : إن هذا الكتاب المعْجز المنزل على رسول الله ﷺ.. هو نتيجة ارتقاء حضارات البشر.

عطاء القرآن يتجدد

والقرآن لم يأْت ليعلمنا أسرار الكون.. وإنما جاء ليكنز هذه الأسرار حتى تتقدمَ الحضارات ويتسع الفهم البشرى.. فيكتشف من عطاء القرآن ما يتناسب مع فهم العقول فى كل جيل. ولذلك فإن للقرآن عطاء مجدداً لا يتوقف أبداً إلى يوم القيامة يقول الحق:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

ولقد وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله ﷺ عند عطاء القرآن وقت نزوله ما استطاعت عقولهم أن تطيقه من أسرار الكون ، ومن أسرار ألفاظ القرآن. فلم نجد صحابياً سأل رسول الله ﷺ عن آيات الكون فى القرآن.. أو عن عطاءات القرآن فى اللغة.

ولذلك لا نجد أن صحابياً سأل عن معنى «ألم».. أو «عسق».. أو «حم» على أن رسول الله عليه الصلاة والسلام استقبل أناساً كثيرين يؤمنون بكتاب الله.. واستقبل أناساً كثيرين يكفرون بما أنزل الله.. وكان الكفار يريدون أن يُقيموا الحجة على أن القرآن ليس كلام الله.. ولكننا لم نسمع عن أحد من عُتَاة الكفار أنه قال للقوم وهم بُلَغَاء فصحاء.. العربية عندهم ملكة وليست صناعة.. ما سمعنا واحداً من الكفار يقول ماذا تعنى «ألم» أو «حم».. أو «عسق».. وكيف يمر الكافر المكابر على فواتيح السور هذه ، ولا يجد فيها ما يطعن به هذا الدين؟.

الجواب : أنه انفعل لها وإنْ لم يؤمن بها.. ولم يجد فيها ما يمكن أن يستخدمه ليهدم القرآن.. فلا المؤمنون سألوا رسول الله ﷺ عنها.. ولا الكافرون الحريصون على محاربة هذا الدين والتشكيك فى القرآن سألوه.. ولو أنهم وجدوا شيئاً غير عادى لقالوه للناس.. ولكنهم كانوا يقولون : لا تسمعوا لهذا القرآن.. ومعنى طلبهم عدم السماع للقرآن.. أنهم يعتقدون - وهم الكافرون - أن للقرآن أخْذاً للقلوب وأسْراً للنفوس.. وحلاوة لا يمكن لمن يسمعه إلا أن يؤمن به.

وإن كان القرآن لا يعطى شيئاً من هذا ما اهتم الكفار بأن يمنعوا الناس من سماع القرآن.. وأن يقولوا : والغوا فيه.. أى : أصدروا أصواتاً عالية عندما يقرأ أحد المؤمنين القرآن.. حتى لا يتمكن أحد من سماعه.. ولا يمكن أن يحدث هذا إلا إذا كان هؤلاء الكفار وهم أصحاب ملكة عربية يعرفون تأثير القرآن على مَنْ يسمعه.

الآيـات الكونيـة

رســول الله ﷺ وهو الذى نزل عليــه القرآن.. فَـسَّـر وبيَّن كل ما يتعلق بالتكليف ، أى بافعـل ولا تفعل.. ولكنه ترك كل ما يتعلق بغير التكـليف للأجيال القادمة.. ذلك لأن الـقرآن كلام الله والكون خَلْق الله.. وفى الكون آيات من صُنْع الله.

الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت]

إذن : فلله فى كونه أسرار يسميـهـا آيات.. ويسمى ما ينزل من القـرآن آيات.. ففى الكون آيات وفى القـرآن آيات.. وعدم تفـسيـر رسول الله ﷺ لكونيـات القرآن حدث ؛ لأن العقـول لم تَكُنْ تتسع لهذا التـفسيـر.. فتـرك الرسول الكريم كل مَنْ يسـتطيع أن يأخذ شيئاً من كونيات القرآن أن يأخذه.. فكان المنع عين العطاء.

كلمة قرآن ساعة تسمعهـا تفهم أنه يقرأ.. لأن قرآن مصدر قرأ قرآن.. مثل غفر غفران.. ولكنه بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قـرآن اسمـاً للكلام الموحَى به من الله سـبحـانه وتعالى لرسـول الله ﷺ .. ويُسمِّيه الله تبارك وتعالى كتاباً.

إذن : هو قرآن وهو كتاب.. إن أخذته عـلى أنه يقرأ فهو قرآن.. وإن أخذته على أساس أنه يـكتب فهو كتاب.. والقـراءة تحتاج إلى حافظ يقرأ.. أمـا الكتابة فلا تحتاج حـافظاً ؛ لأن كل شىء مُسجَّل بالكتابة.. فإذا أردت أن تقرأ من الكتـاب تستطيع أن تفعل ذلك فى أى وقت دون حاجة إلى الحفظ.

والحق سبحانه وتعالى أراد بهذه التسمية أن يلفتنا إلى أن القرآن له وسيلتان من وسائل القراءة.. فهو يُحفظ فى الصدور ويُسجَّل فى السطور.. ولذلك حين بدأ تسجيل القرآن كتابة كان لا يكتب منه آية إلا إذا وجدت مكتوبة على جذوع النخل أو الجلود.. أو أية وسيلة من وسائل الكتابة الأخرى فى عصر نزول القرآن.. كان لابد أن تكون الآية مكتوبة ، وهناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها.. إلا آية واحدة لم توجد إلا عند حافظ واحد فقط.

وهذه الآية هى الوحيدة التى شَذَّتْ عن القاعدة من أن تكون الآيات مكتوبة بواسطة كَتَبة القرآن فى عهد الرسول.. ومكتوبة فى صدور اثنين من الحافظين على الأقل.. وكان القياس يقتضى ألا تُكتب هذه الآية.. ولكن انظروا إلى الخواطر الإيمانية يقذفها الحق سبحانه وتعالى فى صدور المؤمنين ليكمل منهجه.. هذه الآية لم يوجد مَنْ يحفظها إلا خزيمة بن ثابت.. وعندما ثار الجدل حول تدوينها.. ذكر قول رسول الله ﷺ «مَنْ شهد له خزيمة فحسبه»(1).

شهادة خزيمة بشهادتين

وكان الرسول الكريم قد أعطى خزيمة بن ثابت وحده نصاب شهادة رجلين.. وهذه لها قصة.. أن رسول الله ﷺ ابتاع فرساً من أعرابى.. فاستتبعه النبى ﷺ ليقضيه ثمن فرسه « أى يعطيه».. فأسرع رسول الله ﷺ المشى وأبطأ الأعرابى ، فطفق رجال

(1) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٤/١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت. قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٠) : «رجاله كلهم ثقات».

يعترضون الأعرابي ليساوموه في الفرس.. ولا يعرفون أن النبي ﷺ ابتاعه.. فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ وقال : إن كنت مُبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته.. أي : هل تريد شراء الفرس أو بيعه.. فقال النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي : أو ليس قد ابتعته منك؟.. فقال الأعرابي : لا والله ما بعْتكه (أي : ما بعتُه لك).. فقال النبي ﷺ: بلى قد ابتعته منك. فقال الأعرابي : هَلُمَّ شهيداً (أي ائتني بشاهد).. فقال خزيمة بن ثابت : إني أُشهد أنك بايعته (أي بعْته لك).

وبعد أن انصرف الناس أقبل النبي ﷺ على خزيمة وقال : بِمَ تشهد؟ (أي : كيف شهدت على هذا) ولم تكن موجوداً وقت المبايعة بيني وبين الأعرابي .. فقال خزيمة بن ثابت : بتصديقك يا رسول الله : (أي : هل نصدقك في كل ما تأتينا به من خبر السماء ونكذبك في هذه؟).. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين.. وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين.. لأن رسول الله ﷺ أجاز شهادته بشهادة رجلين.

ولما بدأت كتابة القرآن وجدت الآية الكريمة :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾ [الأحزاب]

ولم توجد هذه الآية محفوظةً إلا في صدر خزيمة بن ثابت، فأخذت شهادته بشهادة رجلين.. وتَمَّ تدوين الآية.

المعجزة والمنهج

وإذا أردنا أن نُعرِّف القرآن التعريف الحقيقي.. فإنه لابد أن يخرج عن كل تعريف بقياسات البشر.. فالناس ساعة يعرفون

شيئاً يقولون حده كذا، ورسمه كذا إلى آخره.. ولكننا لكى نُعرِّف القرآن الكريم نقول: إن القرآن هو ابتداء من قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

إلى أن نصل إلى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس]

أى: أنه من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس.. على أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن نقرأ أى آية من القرآن.. كما علَّمنا الحق سبحانه وتعالى فى قوله جل جلاله:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾ [النحل]

لكن العلماء أرادوا التخفيف على الناس فى اختصار تعريف القرآن الكريم.. فقالوا: هو كلام منزل على محمد ﷺ بقصد التحدى والإعجاز، ليبين للناس منهج الله.. فالقرآن كأى كتاب منهج سبقه هو مُوحىً به من الله.. فالتوراة من الله.. والإنجيل من الله، والزبور من الله.. ولكن الكتب التى سبقت القرآن كان مقصوداً بها المنهج فقط.

أما القرآن الكريم فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله ﷺ.. فالتوراة كانت منهج موسى ومعجزته العصا.. والإنجيل منهج عيسى والمعجزة إبراء الأكمه والأبرص.

إذن: المعجزة شىء والمنهج شىء آخر بالنسبة للرسل السابقين.. ولكن القرآن تميّز بأنه المنهج والمعجزة معاً.. ذلك أن المناهج التى أنزلها الله على الرسل السابقين.. أنزلها على نية

تغييرها. ولكن القرآن الكريم نزل على نية الثبات إلى أن تقوم الساعة.

ولذلك كان لابد أن يؤيد المنهج دائماً بالمعجزة.. وذلك حتى يستطيع أىُّ واحد من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول : محمد رسول الله وتلك معجزته.. فمعجزة عيسى عليه السلام حدثتْ وانتهت لأنها معجزة مادية.. مَنْ رآها آمن بها ، ومَنْ لم يَرَها فهو غير مقصود بها.. ذلك أن المعجزة المادية مقصود بها تثبيت المؤمنين الذى يتبعون الرسول.

ومعجزة موسى عليه السلام كانت العصا التى ضرب بها البحر فانشقّ نصفين.. ولكن أتباع موسى الآن لا يستطيعون أن يأتوا بعصا موسى ، ويقولون هذه معجزته.

إذن : فالرسل السابقون لرسول الله ﷺ كان لكل منهج ومعجزة.. كلاهما مُنفصل عن الآخر.. أما معجزة محمد عليه الصلاة والسلام فقد تميزَت بأن المعجزة هى عين المنهج ، والمنهج هو عين المعجزة.. بحيث تكون المعجزة موجودة يمكن أن يشار إليها فى أى وقت من الأوقات.

أما المعجزات السابقة فكانت على قَدْر أزمانها.. مَنْ صادفها صدقها ، ومَنْ لم يصادفها إنْ شاء صدق ، وإنْ شاء لم يصدق.. ونحن نصدقها جميعاً ؛ لأنها ذُكِرَتْ فى القرآن الكريم.

القرآن وقوانين الكون

وإذا أردنا أن نعرف معجزة القرآن.. فلننظر ماذا قال عن قوانين الكون.. كروية الأرض ذُكرت فى القرآن ، وكذلك دوران الأرض حول نفسها.. البداية الواحدة للكون وما يحدث فى أعماق

البحار.. وغير ذلك مما لم يُكتشف إلا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين جاءت فى القرآن.. الحقائق العلمية التى لا يستطيع أحد أن يُكذِّبها الآن ؛ لأنها أصبحت ثابتة الوجود أشار إليها القرآن.. لماذا؟

لأن رسالة القرآن إلى أن تقوم الساعة.. وما دامت رسالته إلى أن تقوم الساعة فسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة.. إذن: لابد أن يكون له عطاء جديد لكل جيل.. ويتناسب مع كل عصر، وهذه هى المعجزة.. وإلا لو أعطى القرآن إعجازه فى قرن واحد ثم توقف استقبل القرون الأخرى بغير إعجاز. يكون القرآن قد جَمُد فى عطائه.. ولابد للقرآن أن يظل معجزة.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ما الذى يتبين لنا أنه الحق؟.. إنه القرآن الكريم المعجزة الدائمة.. ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. (٥٣) ﴾ [فصلت]

لأن معنى هذه الآية أن الذين سيكشف لهم الله عن آياته فى الكون هم من غير المؤمنين بالقرآن ، فالمؤمنون يعرفون أن القرآن حق ، وهم ليسوا محتاجين لآيات كونية لتعطيهم الإيمان.. ولكن غير المؤمنين ينكرون أن هذا القرآن حق.

والله سبحانه وتعالى حين يريد أن يظهر إعجازاً.. فإنه لا يمكن أن يأتى بمعجزة لا يعرف عنها الخلق شيئاً.. فأنت لا تتحدى

كسيحاً فى سرعة المشى.. ولا شيخاً كبيراً ضعيفاً فى حَمْل الأثقال.. ولكنك إذا تحديتَ فلابد أن تتحدى مجموعة من الناس فيما نبغوا فيه.

ولذلك إذا قلنا : إن القرآن جاء يتحدى العرب بإعجاز الأسلوب واللغة، فهذه شهادة للعرب على أنهم متفوقون فى دنيا الكلمة.. وهنا عندما يغلبهم القرآن يكون هذا هو التحدى وهذه هى المعجزة.. تَحدٍّ فيما نبغوا وتفوقوا فيه.. ولذلك كان لابد أن يكون العرب عندهم نبوغ الكلمة.. أى الأداء الجيد المعبر المستميل للكلمة.. وكان هذا مألوفاً عند العرب شعراً ونثراً وخطابة.

الرسول ليس بشاعر

فإذا نظرنا إلى موقع محمد ﷺ نقول : إن رسول الله عليه الصلاة والسلام عاش إلى سنِّ الأربعين. لم يشتهر ولم يُعرَف عنه أنه نبغ فى شعر أو نثرَ مثل قُس بن ساعدة أو أكثم بن صيفى.. ومن هنا فإن حظ رسول الله ﷺ من البلاغة كان حظاً عادياً دون نبوغ.

ومع ذلك فقد جاءت رسالته تتحدى قومه فى البلاغة واللغة.. ولو أنه ﷺ كان مشهوراً بالشعر أو النثر أو البلاغة.. لقالوا : إن القرآن عبقرية أدائية لمواهب كانت موجودة عند رسول الله ﷺ منذ الصِّغَر.. ومواهب الناس تظهر عادة قبل العشرين أو قبل الثلاثين إذا كانت الموهبة متأخرة.. ولكن الموهبة لا تظهر فجأة على الإنسان فى سن الأربعين.. ولا توجد عبقرية تتأخر أبداً حتى الأربعين.

فإذا فُوجِىء العالم بأن محمداً عليه الصلاة والسلام.. الأمى

الذى لم يُعرف عنه أنـه خطب أو كتب أو قال شـعراً.. أو أن له أى حظ فى دنيـا البلاغة.. ثم بعـد ذلك يأتى بقرآن يعـجز عنه أشـهر البُلَغاء وأكثـرهم موهبة فى فَنِّ الكلام.. وأن هذا الكلام المعـجز قد جاء به رسول الله ﷺ وهو فى سنِّ الأربعـين.. لا يستطيع أحد أن يدعى أن محمـداً عليه الصلاة والسلام كان عنده الإعـجاز اللغوى وحجزه عن الناس حتى سن الأربعين.. ثم بعد ذلك أظهره.

لماذا ؟.. لأننا نعيش فى عـالم أغيار يموت فيـه الناس قبل سن العشرين وقبل سن الثلاثين وقـبل سن الأربعين.. فمن الذى أخبر محمداً أنه سيعيش إلى سن الأربعين.. فقد مات أبوه وهو فى بطن أمـه .. وماتت أمـه وهو طفل صـغـير .. وهذه هى المقدمـات فى حـيـاته ، فمن يضـمن أنه سـيـعـيش إلى سن الأربعين .. فـيكتم عبقريته عن الناس ثم يُظهرها فى هذه السن.. طبعاً مستحيل.

ولذلك عندمـا جاء الكفار وحـاولوا أن يطلبوا من مـحمـد عليه الصلاة والسلام أن يُغيِّر فى القرآن أو يبدله.. نزلت الآية الكريمة:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

ثلاثة أساليب مختلفة

ولو كان هذا القـرآن من عند مـحـمد لكان قابلاً للتـغـيـير ولكنه مـحفـوظ بحـفظ الله له وتركـيبـه البـلاغى والنحـوى من المتكلم والمخاطب والغـيبة والتـقديم والتأخـير ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحـال والمجـاز والكناية والحـوار كل ذلـك يدلُّ دلالة قَطْع أن هذا

ليس من تأليف بشـر ، وما ينبـغى لبشر أن يأتى بـأبسط سورة منه ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.. ولكن الحق سبحانه وتعالى يُعلمه ليرد عليهم بالحجة البالغة.. فيقول جل جلاله :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

الله سبحانه وتعـالى يُعلِّم رسوله الكريم أن يرد على الكفار أنه عاش معهم أربعين سنة قـبل الرسالة.. لم يشتهر بينهم بالخطابة ولا بالشعر ولا بالبـلاغة.. فلو أنهم فكَّروا بعقولهـم لَعَرفوا أنه لو كانت عـنده عبقـرية لأظهرهـا منذ سنوات طويلة.. ثم مَنْ ذا الذى يُنسب إليه الكمال فيرفض الكمال.. ويقول هذا ليس من عندى.. إن الناس تدعى كـمالات الغـير.. فكم من إنسـان رأى إعجـاب الناس بعمل من الأعمـال لم يعرف صاحبه فنسبـه لنفسه.. بل إن الناس تتصارع على نسب الأشياء الجيدة لنفسها.

وكم رأينا نزاعـات أمام القضـاء بين أشخـاص مختـلفين.. كل واحد يدعى ملـكيته لعـمل جيـد.. ثم مَنْ هذا الذى يملك العبـقرية لتكون له ثلاثة أساليب متميزة مختلفة عن بعضها تماماً.. فأسلوب القـرآن غير أسلـوب الأحاديث القـدسية، غـير أسلوب الأحـاديث النبوية.

اذكروا لنا أى عبقرى فى الدنيا من يوم أن خُلقت إلى يومنا هذا له ثلاثة أسـاليب.. لكل منهـا طابع مُمـيز لا يتـشابه مع الآخـر.. وكـيف يمكن أن يفـرِّق رسول الله ﷺ بين القـرآن وبين الحـديث القدسى وبين الحديث النبـوى إذا كان كل هذا من عنده؟.. إن لكل شـخص أسلوبه الذى يتـميـز به.. وأنت إذا كنت مُطلعـاً فى علوم

اللغة والأدب.. فإنك بمجرد أن تقرأ الكلام تقول هذا كلام فلان لأن لكل شخص طابعاً يميزه.. فكيف استطاع رسول الله ﷺ أن يُقسِّم كلامه، فيقول: هذا قرآن، وهذا حديث قدسي، وهذا حديث نبوي.

إذن: فاختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية مصدرهما فوق بشريته حتى الحديث النبوي مصدره إلهي ومنطقه له.. لأن الشخصية الأسلوبية لأي إنسان هي شخصية مميزة.. ولا يمكن لإنسان أن ينفعل بأحداث الحياة، فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماماً عن الأسلوب الآخر.. أي: يكتب اليوم بأسلوب، وغداً بأسلوب، وبعد غد بأسلوب.. ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول.

معنى الخلق العظيم

الحق سبحانه وتعالى حين كلف رسول الله ﷺ بالرسالة.. فوجيء الناس بهذا البيان المعجزة فأثار حيرتهم.. وأرادوا أن يُكذبوه فلم يعرفوا كيف يكذبونه.. قالوا: ساحر.. ونقول لهم ببساطة: ما دام ساحراً وسحر الناس، فلماذا لم يسحركم أنتم لتؤمنوا به؟

إن المسحور لا يملك إرادة مع الساحر.. ولو أن محمداً كان ساحراً ما تعذر عليه أن يسحركم كما سحر الذين آمنوا به.. إذن: هذا دليل على أنه ليس بساحر.

قالوا: مجنون. ونقول لهم: إن المجنون هو الذي يفعل الأشياء بغير رتابة، وبلا وعي.. ولكن رسول الله ﷺ على خلق عظيم.

ومـعنى الخلق العظيم أن الأفـعال تصـدر عنه بيسـر وسهـولة وصدق.. لأن الإنسان غير الصـادق لابد أن ينسى ما قاله، ويتخبط فى كلامه.. فيقول اليوم ما نفاه بالأمس.. وينفى غداً ما يقوله اليوم.

ولذلك قيل : إذا كنت كذوباً فكُنْ ذكوراً.

أما الإنسان الصـادق فإنه يرى الأشياء بطبيعـته.. ولا يختلف قـوله لأن الصدق عنده ملَكة.. مـا مـعنى ملكة؟.. أن يكون الشيء تلقائياً أو آلياً كما يُطلقون عليه الآن.. أى : أن الفكر لا دَخْل له فيه.

إن الذى يتعلـم مهنة الترزى مـثلاً أول ما يبـدأ يعطونه الإبرة. أول الأمر يسـتغرق وقـتاً طويلاً.. ويُعيـد العملية مـرات ومرات.. ولكن عندما يعتاد على ذلك تتم هذه العمليـة بطريقة آلية أى بيسر وسـهولة.. تمامـاً كالذى يتعلم قيادة السـيارة. فى أول الأمر يكون مُتخبِّطاً فى حركات قدمـيه.. فبدلاً من أن يضـع قدمه على البنزين يضعـهـا على الفـرملة أو العكس.. حركات قـدمـيـه غير مـتوازنة.. تجعل السيارة تندفع فجأة وتقف فـجأة.. لا يجيد تقدير المسافات بينه وبين مـا حوله.. فـيصطـدم بهذا ويصطدم بذاك.. فـإذا تعلم قيـادة السيارة قـادها وهو يتحـدث معك. وتتم كل هذه العـمليات بطريقة تلقائية آلية دون فكر.

كذلك الأخلاق تصدر عنها الأعمـال بيسر وسهولة ؛ لأن النفس انطبعت على السلوك الجـيد انطباعاً يسَّر حـركتها.. فيـقال : فلان خُلقـه الكرم ، أى يُخرج مـا فى جيـبه بتـلقائيـة ليعطيـه للناس.. ولا يفكر إن كـان محـتاجـاً له أم لا.. والذى خُلقـه الصدق يقـول الحق ولو على نفسه.. والذى خُلقه الأمانة لا يمد يده إلى ما يملكه غيره ، ولو كان فى قمّة الحاجة.

ورسول الله ﷺ شهد له أهل مكة جميعاً بأنه على خلق عظيم قبل أن يُكلف بالرسالة.. ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى وهو يرد عليهم :

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم]

وهل يكون المجنون على خلق عظيم؟.. إن المجنون لا يكون على خلق أبداً.. فإنه مرة يتحدث معك.. وبعد دقيقة واحدة وبدون مُقدِّمات يقوم ليضربك أو يقذفك بحجر.. وهو يضحك ثم يبكى بلا سبب مفهوم.. وهو يقول الكلام ، ثم يقول عكسه.. وأنت لا تستطيع أن تأتمنه على شيء لأنه لا يدرك معنى الأمانة.. ورسول الله ﷺ شهد له أهل مكة جميعاً بأنه الصادق الأمين.

وكانوا يُودِّعون عنده كل غَال ونفيس يخافون عليه ويُحكِّمونه فى الخلافات التى تحدث بينهم.. كما حدث عند إعادة الحجر الأسود إلى مكانه فى الكعبة.. فهل هذه الأشياء تحدث من مجنون.. لقد كانوا كاذبين بشهادتهم هم أنفسهم.. وذلك وهم يتخبَّطون لم يعرفوا ما الذى يقولونه.. اقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. ۝ ﴾ [الأنفال]

انظر إلى المنطق المعكوس.. كان المفروض أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه.. ولكنهم بدلاً من ذلك تمنَّوا الموت وفضَّلوه على الهداية.. فهل هذا منطق؟.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾
[الزخرف]

إذن : فهم لا اعتـراض لديهم على القرآن.. ولا أنه من عند الله.. ولكن اعتراضهم على من نزل عليه القرآن وهو رسول الله ﷺ. فلو نزل القـرآن على زعـيم من زعـمـاء قـريش لآمنوا بـه.. فـهل هذا منطق؟.. يعرفون الحق ثم يرفضون الإيمان.

وهكذا نجد أن القرآن قد أحدث ضجة كبرى فى النفوس عندما نزل.. فالمؤمنون به كـانوا يزدادون إيماناً كلمـا نزلت آية جديدة.. والكافرون كانوا يحاولون أن يطعنوا فيه.

الوحى والطبيعة البشرية

والله سبحانه وتعالى يعطى منهجه لرسله غيباً عن الناس.. فلا يأتى الوحى للرسـول ظاهراً أمام الدنيـا كلها وإنما يأتيـه خفـياً.. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

فطبيعة التكوين البشرى لا تحتمل أن تستقبل عن الله مباشرة.. ولذلك لابد من الوحى.. والوحى إعلام بخـفاء.. أى : أنه إذا جاءك ضيف وأنت لا تريد أن تقابلـه.. بإشارة خفية لخـادمك يفهم منها قصدك ، فيـذهب ليقول للضيف : إنك غيـر موجود.. هذه الإشارة لا يفهمها إلا أنت ومن اتفقت معه عـليها.. أما باقى الحاضرين فما فعلته هو خَـاف عنهم فلا يفهمونه.. والله ـ كمـا قلنا ـ أوحى لغير الرسل.. أوحى للملائكة.. وأوحـى إلى أم موسى.. وأوحى للنحل.. وأوحى للأرض.. هذا هو الوحـى اللغـوى.. أمـا الوحى الشـرعى

فـيكون وحيـاً من الله لرسله.. والله حـين يوحى إلى بشر فـهناك ثلاث طرق.. الطريقة الأولى فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

أى : يوحى إليه بالخواطر التى يريدها.. وقوله تعالى :

﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

مثلما كلم الله موسى.. وقوله جل جلاله :

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. (٥١) ﴾ [الشورى]

مثـل جبريـل عليه السـلام.. إذن : فالطريقـة الأولى هى مطلق الإلهام.. وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

أى مطلق إلهـام.. الله سبـحانه وتعـالى يقذف فى قلبـه الوحى فيـقوم بما يُطلب منه.. ولكن هناك أشيـاء كثيـرة تقذف فى قلوب الناس.. وهناك شيـاطين يُوحـون لأوليـائهم.. فكيف نُفـرِّق بين الوحى من عند الله والوحى من عند غير الله ؟

نقول : ساعة أن يأتى الوحى من عند الله تجد تسليماً مطلقاً فى كل ملكات نفسك ، ولا تجد أية معارضة فى القيام بما أُوحى إليك.. وإذا أردنا لهذا مثلاً نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧) ﴾ [القصص]

إيمـان أم مـوسى عليه السلام

قل لى لو أن إنسـاناً جـاء لأم وقـال لهـا : إذا خـفْت على ابنك فألقـيه فى البحـر.. هل تقبل الأم هذا؟.. هل تنجى ابنهـا من موت مظنون قـد يحدث أو لا يحـدث.. إلى موت محـقق بأن تلقـيه فى البحر.. ولكن أم مـوسى لم يتسع عقلها إلى أى فكر.. فبـمجرد أن

جاءها الوحى من الله وضعتْ ابنها فى الصندوق وألقتْه فى البحر.. دون معارضة من ملكات النفس.. لأن الوحى الوارد من الأعلى لا يمكن أن تعارضه ملكات الأدنى.. ولكن بمجرد أن ألقتْ أم موسى بابنها فى صندوق فى البحر.. أراد الله أن يُطمئن ملكات الأمومة فى نفسها.. فأوحى إليها فى قوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦ ﴾

[القصص]

ثم يخبرها الحق سبحانه وتعالى وحياً.. أنه أصدر الأمر إلى الماء فى البحر ليلقيه بالساحل.. وأسمعها أمره إلى البحر ، فقال :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ㊴ ﴾ [طه]

فكأنه يُطمئنها بأن الأمر قد صدر للبحر بأن يُلقيه إلى الساحل ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا .. ㉑ ﴾ [الشورى]

كل هذه الطرق الثلاث أُوحى بها إلى رسل الله.. ولكن القرآن لم يأتِ وَحْياً بخاطره .. ولم يأت كلاماً من وراء حجاب .. وإنما جاء برسول وهو جبريل عليه السلام.. حتى يكون متميزاً .. وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه الوحى يسمع صلصلة كصلصلة الجرس ويتغير شكله.. ويسمع حول رأسه دوياً.

إذن : هناك تغيير فى ذات محمد.. بحيث لا يمكن أن يلتبس عليه أبداً وَحْى القرآن بأى خاطر آخر .. وهكذا كان القرآن ينزل ليس بطريقة الخاطر يُقذف فى النفس .. ولا بكلام من وراء

حجاب .. وإنما بملك وعلامات مميزة لا يوجد فيها شك .

ولذلك عندمـا نزل الوحى على رسول الله ﷺ أول الأمـر تعب.. وأجهـد من لقاء بشـريته بالملك.. وعندما فـتر عنه الوحى اشـتاق إليه.. وهكذا كان الوحى عندما يأتى ، يأتى بمشقة وتعب.. وعندما يذهب يدرك رسول الله ﷺ حلاوة المأخوذ منه ويشتاق إليه.. وهذا الشـوق يعطى للرسول الـكريم طاقة يتـحمـل بها مـتاعب اللقـاء بجبريل عليه السلام.

دقة الوحى الإلهى

انظر إلى الدقـة فى الوحى الإلهى.. رسول الله ﷺ تنزل علـيه سورة طويلة.. ثم يذهب عنه الوحـى فيتلو السورة على أصـحابه ويقول : أوحى إلىّ كـذا.. فيكتب من الصـحابة مَنْ يعـرف الكتابة الآيات التى نزلت.. ثم يأتى وقت الصــلاة فيـقوم رسـول الله ﷺ ويقرأ الآيات فى الصلاة فتأتى طبْق ما أوحى إليه.. ولو أن إنساناً تكلم معك وسَجلت له كلاماً.. ثمَ طلبت منه بعد نـصف ساعة أن يعيـد نفس الكلام الذى قاله.. ربما قاله بالمعنـى ولكنه لا يستطيع أبداً أن يقوله بنفس الألفاظ.. ولذلك مثلاً تنزل آية يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

وآية أخرى تقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

لو لم يكن هذا وحـيـاً من الله.. وقـرآناً تحـفظه قدرة السـمـاء لاختلطت الآيـات عند التلاوة .. ولو كان هذا اعتمـاداً على الذاكرة

مـا كان يمكـن أبداً التفـريق بينهـمـا.. ولكنه وَحْى يأتى من الله ، فينزل إلى النفس.

بل إنه فى الكتـابة أيضـاً.. فـالقرآن له كـتـابة تعطيـه قداسـة خاصـة.. اقرأ آيات الـربا فى القرآن الكريم.. كل كلمـات «ربا» فى القـرآن مكتـوبة بالواو إلا آية واحـدة مكتـوبة بـالألف فى قـوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ .. (٣٩) ﴾ [الروم]

لو أن المسألة رتابة كلمات لكُتبت كلها بشكل واحد.. اقرأ المعجم المفـهرس فـى كلمة ﴿تبـارك﴾.. تجـد بعـضـهـا مـحذوفـة الألف وبعضـها بالألف.. اقرأ ﴿باسم الله﴾.. تجد بعضها بالألف وبعضها محذوفـة الألف.. إذن : المسألة ليست رتابة كـلام.. ولكن كل كلمة نزل بها الوحـى بشكل خاص.. وبأسلوب خاص.. ولا تـختلط آية مع آية.. ولا كلمة مع كلمة. وصدق الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم]

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن الفتـرة التى قضاها رسول الله ﷺ فى مكة قبل الهجرة.. فـقد كانت فترة مليئـة بالصراعات.. وكانت فترة تحمَّل فيها رسول الله ﷺ والمسلمون الإيذاء المستمر .. وإيذاء النبى عليه الصلاة والسـلام سببه أنه جاء بدعوة الخـير ، فأسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير.

إذن : فـأمـر طبـيـعـى أن يكون لرسـول الله ﷺ أعـداء.. الحق سبحانه وتعالى يعرض لنا هذه القضية فيقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

وكل مَنْ يحمل من العلماء رسالة رسول الله ﷺ ليبلغها إلى الأجيال التالية.. إن لم يكن له أعداء يكون حظه من ميراث النبوة ناقصاً.. فإذا كان للداعية إلى منهج الله أعداء نقول له : لا تنزعج.. اطمئن.. إن معنى وجود أعداء لك.. أن فيك أثراً من آثار النبوة.. والداعية الذى لا عدو له لا يظفر من ميراث النبوة بشىء. وعليك بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) ﴾ [الأحزاب]

وقد واجه النبى ﷺ عداوة قريش وإيذاءها؟.. واجهها بصبر الإيمان وباحتمال أقوى من الأحداث نفسها.. ولقد حاولت قريش أن تمنع رسول الله ﷺ من أن يتحدث مع القبائل الوافدة إلى مكة فى موسم الحج.. حتى تمنع انتشار الدعوة.

وأحسَّتْ قريش بأن الخطر يتهددها ليس فقط فى مكة.. ولكن فى الجزيرة العربية كلها.. وأرادوا أن يضعوا النهاية كما يعتقدون .. نهاية محمد عليه الصلاة والسلام.. وأعدُّوا أقوى شباب قريش لهذه المهمة.. واعتقدوا أن هذا هو الحل الأخير الذى سينهى كل شىء.. ولكنهم وهم يدبرون نسوا أن لله أقداراً لابد أن تنفذ.. وأن الله ناصر رسوله ودينه.. ولن يتخلى عن محمد عليه الصلاة والسلام.. وأن الله سبحانه وتعالى عليم بما يدبرون.. بل عليم بما يُخْفُون فى نفوسهم ولا تنطق به ألسنتهم ولكن كيدهم فى تضليل والله من ورائهم محيط .

وتحـقق وعـد الله لرسولـه ﷺ ، فاقـام عـدلاً ، وحطم ظلمـاً ، ووضع الأسس لمدينة العدل والتنوير قوامها :

١ – صلة الإنسانية بالخالق .

٢ – صلة الأخ بأخيه فى العقيدة .

٣ – صلة الإنسان بالإنسان .

٤ – إقامة صرح العدالة الاجتماعية فى المجتمعات كافة لتستقر الحياة فى ظلال قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . . (٢٤) ﴾ [الأنفال]

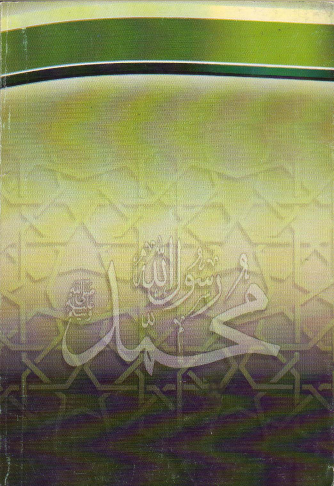
ثم جاء نصر الله المؤزَّر ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً.

● راجعه على الأصل فضيلة الشيخ محمد السنراوى المستشار بالأزهر.

الفهـرس

الصفحة

رقم الإيداع ٩٩/٢٩٢٥
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0804 - O


محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم